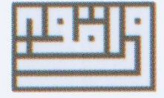


ساعة الحائط

يحيى الشيخ

نصوص



ساعة الحائط

يحيى الشيخ

ساعة الحائط

نصوص






مكتبة
الفكر
الجديد

المقدمة

لطالما أتذكّر تشيخوف، الذي أعود له مراراً، وأقرأ له ما قرأته سابقاً. تماماً كما أعود لسماع قطعة موسيقية سمعتها عشرات المرات، أو أغنية تحفر أعماقي وتكريها من جديد. كان يردّد، دائماً، عندما يناقشون معه نصوص مسرحياته قبل تمثيلها، وهو محرجاً: "أنا لستُ كاتباً، أنا طبيب" كان يحاول جاداً النأي عن صيغة الكاتب الجدّي، المنضبط، الرصين، ذي المشروع التاريخي، الخبير بالبلاغات اللغوية. ليس لعدم قدرته، إنما بسبب انشغاله العميق ببلاغة الحياة، التي كان يقلقه البحث عنها. كانت قضيته شقّ طريق قصيرة، بلا لف ولا دوران، تفضي إلينا. في الحقيقة أنها تفضي أولاً إلى روحه التي نشوفها بوضوح.

ليس في نيتي تقدير قامة تشيخوف العملاقة، فأنا أصغر من هذا، إنما أقف في ظله مذهولا أمام الكتابة: دوافعها،



معناها، نسيجها، وأستعير منه قوله: "أنا لست كاتباً، أنا طبيب"، إنما بصيغة أخرى أقول: أنا لست كاتباً، إنا رسام! وأحاول هنا، ولا أدعي التواضع، توضيح هذا القول بأقصر الجمل.

والحال أني أجلس إلى طاولتي بعد عناء عشر ساعات أو أكثر، يومياً، من الاشتغال في فني. طاولتي مخصصة للرسم، عليها أقلام وأوراق للرسم، كما يفترض بها، لكن تلك الأقلام تكتب أيضاً! أنا لا أعرف إلا تحريك أصابعي، ألعب بيدي. لا أعرف إلا أن أترك أثراً في مكان ما. لدي يقين أن الإنسان لا يجيد التفكير فقط، بل يحسن الخربشة، وقضم الأضافر، وأحيانا عض الأصابع. بعد العمل، وأكون قد أفرغت هواجسي في الرسم، ولم يبق لي غير بضع أشواق، تأتي رغبة الكتابة، التي تُشبع لدي رغبة الكلام مع أحد ما، والتفكير بحياتي. عليّ أن أكشف لكم سراً: أني منذ الصباح حتى أعود للبيت ليلا، وكلَّ يوم، لا أنطق بغير بضع كلمات، عبر الهاتف، تكفي ليطمئِن أهلي أني ما زلت حياً في المرسم: "نعم حبيبتي. أنا بخير. لا تنتظروني على العشاء. أعود متأخراً... سلاما".



إذن أنا أكتب حتى أتكلم مع نفسي. ولستُ حريصاً على تقدير أهمية ما أكتبه، أو معالجة مشاكله اللغوية، فهذا لا يحرجني، كما انه أصبح من مشاغل أصدقائي، وصديقي "حسين مهاوي" بالذات، الذي يسارع يصحح لي، وهي فرصة لي أيضاً، لأعرب لهم عن حبي وأمتناني. أغلب كلماتي أعثر عليها تتسكع على الطاولة، تتصعلك، فآخذها لي. نادراً ما أكنس مشغلي، وأعثر على بقايا قصاصات مكتوبة بحروف جافة، سحقتُها مراراً وأنا أتحرك كالأعمى. أنفض عنها التراب، وأجلس أجمعها كما يجمع الصغار قطع لوحات اللعب.

عندما طلب مني صديقي الكاتب لؤي حمزة عباس، الذي دفعني لنشر الكتاب وتحمل عبء مشاكله، كتابة مقدّمةٍ للمجموعة، شعرت أنه يطلب مني التعري أمام الناس. كيف يكتب المرءُ مقدمةً لنفسه؟

تذكّرت ما يفعله الصاغة، وأنا إبنهم البار، أنهم لا يرمون كناسة دكاكينهم، فهي مليئة ببرادة الذهب ولربما قطع منه، أو حجر ثمين، سقط سهواً. يغسلونها ويعيدون سباكتها،



فيستعيدون ذهبهم نقياً صافياً. إنهم لا يبذّرون التراب. تذكرت سقطت مني مادة كتبتها يوما بعنوان: "أنا رسام" وعثرت عليها. إنها منقذتي، لوح الخشب الطافي في عرض البحر، الذي أنقذني من الغرق في المقدمة.

يحيى الشيخ

1 آب 2015



ابني العجيب

كنّا نحتفلُ بعيدِ ميلادِ زوجتي. أطفأتْ شمعتَها السبعين. إنحنيتُ عليها أقبّلها وهمستُ:

- مباركٌ عامُك حبيبتي.

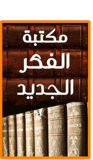
- أشكرُكَ حبيبي.

اخذتْني كذئبةٍ من فمي بقبلةٍ شهيّةٍ، دفعتْني عنها، وقالتْ بنبرةٍ خطابيّة:

- يا هذا، نبشّرك بغلامٍ، وسلامٌ عليه يومَ يُولَدُ، ويومَ يموتُ، ويومَ يُبعَثُ حيّا.

رفعتْ ثيابها وكشفتْ عن بطنها عاريةً أمامَ الضيوف. كانوا مأخوذين بمشهد بطنها وهو يكبرُ بسرعةٍ أمامهم، ينتفخُ، يتضخّمُ حتّى كادَ ينفجر.

صحوْتُ في الصباح مذعوراً. قمتُ من السّرير إلى



المطبخ ظمآناً، وجدتُها تهيّئُ إفطارَ الصباح وهي واجمة. جئتُ من خلفها وقبّلتُ أرنبةَ أذنها وتمنّيتُ لها نهاراً سعيداً. التفتتْ إليّ وقالتْ:

- فعلتَها اذاً!

- ماذا فعلتُ؟

- لم تأخذْ حذرَك... فأنا حامل.

وكشفتْ عن بطنها، وكان منتفخاً وقد بلغَ حجما كبيراً.

- هل تمزحين. لم أنمْ معك منذ أكثر من عشرة أعوام.

- كيفَ أمزحُ... وهذا؟

وأخذتْ يدي بقوّة ووضعتها على بطنها. رفسني بعنف ودقّ بطنها وكاد يمزّقه ويخرج. سمعته يصرخ:

- أبي!

صرختُ بها:

- من أين لكِ هذا؟

أجابتني كأنّها تجيبُ على مسألةٍ رياضيّةٍ أكيدة:

- إنّه يرقدُ في رحمي منذُ عشرةِ أعوام، منذُ المرّةِ الأخيرة... هل تذكرها؟



هي تعرفُ جيّدا أنّ ذاكرتي المريضةَ لا تشهدُ ضدّها ولا معها. تبدّدتْ كما تبدّدت الأفعالُ التي تذكّرني بها. لم يبقَ لديّ أمامها سوى سؤال واحد:

- ستلدينَ طفلاً عمرُه عشرةُ أعوام؟

- نعم!

جاء زوجتي المخاض في الساعة الثالثة صباحاً. نقلتها إلى مستشفى الولادة. الفحص الطبي أكّد أنّ لديها ثلاثة توائم. ثلاثة رؤوس تتنازع للخروج الى مكان مفتوح.

في صالة انتظار بيضاء بين أناس يتبادلون النظرات، بعضهم يختلسها، بعضهم يتجنّبها، أخذتُ مكاني. النعاس يهدّني، وأفكار ثقيلة قادمة من الزوايا يحملها هواء مُشبّع باليود. كلما تُفتح الباب تهجم أصوات استغاثة، أصوات حيوانات تائهة تئنّ، صراخ، وبكاء، وقطط تموء.

ممرضات يركضن في الممرات يدفعن سريراً مغطى. ركضتُ وراءهن، أصيح:

- زوجتي...

- لا... ليست زوجتك... هذه ماتت منذ أعوام.



إلى جواري جلس رجل يندلق من فوق حزامه شحم مترهّل، فسحتُ له مكاناً يسعه.

قال لي: يبدو عليك القلق.

قلت: نعم.

قال: أنا قلق ايضاً.

سألني ماذا عندها؟ وأشار برأسه إلى الباب.

أجبته: قالوا لديها ثلاثة توائم.

قال: لدى زوجتي ثلاثة توائم أيضاً.

سألته: كيف ستتصرف معهم؟

أجابني: لن أستوعب الفكرة بعد؛ أن يكون معي في البيت، بين ليلة وضحاها، ثلاثة مخلوقات جديدة. (شدّد على "بين ليلة وضحاها" ونطقها بلسان صريح وكأنه يستعملها لأول مرة في مكانها الملائم)... ثلاثتهم يصرخون في وقت واحد، يطلبون الطعام في وقت واحد، يتغوّطون في وقت واحد... سأكون سعيداً وأنا اقوم بكل ذلك في وقت واحد.

لم أفهم حاجته ليكرر "في وقت واحد" أكثر من مرة.

سألني:



- وأنت بماذا تفكّر؟

أجبته: في شبابي كنتُ أحلم أن أكون بوهيمياً، وسأحققُ حلمي في توائمي الثلاثة... في الصباح سأحملهم في قفص، وأضعهم عند بوابة مخيم للغجر خارج البلدة. أعتقد أنهم سيكونون، هناك، أوفر حظاً وأعمق سعادة.

نهض وتوجّه صوب الباب، التفتَ إليّ وتأمّلني طويلاً قبل أن يخرج، ثم غاب.

فتحتْ الباب ممرضة نحيلة جداً، نادت بأسمي، هرعتُ اليها، صاحتْ بي:

- تعال!

ساقتني عبر ممرّ طويل متعرج، مسرعة تتخبّط كأنها طائرة ورقية قُطع خيطها. فتحتْ باباً مقفلاً، ودعتني:

- إدخل!

أدخلتني وقفلتْ الباب ورائي.

في صالة جرداء بلا ستائر، بلا أسرة، كانت زوجتي مستلقية على الأرض، عارية، سعيدة ومفعمة بالرضى، تحتضن طفلاً ضخماً يشبهني تماماً، ذو ثلاثة رؤوس،



مربوط بأسلاك أجهزة الكترونية، وأنابيب مطاطية تتدلى من أكياس سوائل ملونة معلقة بالسقف.



أسلحة بائدة

1

غالبا ما أغمضُ عينيّ أطاردُ أفكاراً، ثم أهرب منها إلى هامش نوم خفيف. سمعتُ حمحمة حصان. غطّت المكان رائحة آدمية، وخمة وغبار. من بين رموشي الثقيلة رأيت ميتاً، يقف أمامي بقامة نحيفة خاوية، يغطّي صدره درع من سلاسل بائدة مفكّكة، يعتمر خوذة أكلها الدهر، يحمل رمحاً طويلاً.

فتحت عينيّ على سعتهما لأستوعب المشهد ونهضتُ:

- عفوك أيها الفارس! لقد كنتُ غافياً.

رد عليّ بصوت يسبقه صداه:

- أنا منّ يجب عليه الأعتذار... لقد أقلقتُ راحتكم.



انحيتُ له ولم أرفع عنه نظري وقدمتُ له كرسياً:

- تفضل إسترح.
- أشكركم! أنا أحبذ الوقوف.

التفتَ حوله وأضاف:

- قدر الفارس أن يبقى على أهبة الأستعداد مدى الدهر.
- يشرّفني لو تقبل ضيافتي أيها الدون المبجل.
- تشرّفني دعوتكم. أعرف الكثير عن كرم أجدادي العرب وشهامتهم، لكني لا وقت لي للراحة.

دار رأسه صوب الأفق وأردف:

- يعتقد الناس أنّ الموت راحة أبدية. أما نحن الفرسان فتتضاعف واجباتنا مع تقادم الزمن بعد الموت. في حياتنا نكلّف أنفسنا بشرف نصرة الضعفاء، إنما بعد موتنا، فهو تكليف إلهي أبدي للدفاع عن الحق.

بعطف قلت له:

- سيدي الفارس! أكرمني فرصة استضافتكم.

وقبل أن أكمل جملتي لاحت ابتسامة ترابية على طرف فمه المغطّى بشاربين أشعثين، تتخللها مساحات عارية كما



لو انها نُتفت نتفاً. مدّ يده وأخذ الكرسي، وقبل أن يجلس انحنى قليلا وقال:

- أشكركم! البي دعوتكم، فلا أرغب باحراجكم لتبقى واقفا أمامي هكذا.. أكون ممتنّا لو سقيتني شيئاً، فلم أشرب منذ آخر معركة لي.

تداعى على مقعده وهو يمسك برمحه. أسرعت اليه لآخذه منه ليستريح منه. أبعده إلى الخلف بحركة ماهرة وهز رأسه.

- لا أرجوك، دعه في قبضتي.

شدّ عليه وسمعتُ قضقضة مفاصل وصرير عظام.

- كما تشاء.

هرولتُ إلى المطبخ وجلبتُ جرّة من النبيذ الأحمر، كنتُ أحتفظ بها لزواج ابنتي. قبل أن أخرج له سألتُ نفسي: هل يكون هو حقاً، دون كيخوته، أم أني أهلوس؟

أسرعتُ له مرحّباً، وملأتُ كأسين حتى طفح النبيذ منهما. اتّسعت ابتسامته وفتح فما مثل كهف عميق خاو تتطاير منه نتف اسنان كلما تكلم:



- أقدّر كرمكم أيها الشيخ.

رفع كأسه بوجهي عالياً، ورفعتُ كأسي بحركة مسرحية جادة:

- نخب موتكم أيها المبجّل.

كرع كأسه دفعة واحدة. تنقّع شارباه وانهالت منهما قطرات على درعه. مسح اليمنى، ثم اليسرى وكان يحرّك أنامله اليابسة وكأنه ساحر يؤدّي طقساً أمام جمهور غائب. ظلّ ممسكا بالكأس الفارغة يدوّرها. إعتقدت أنها واحدة من عادات الإسبان في احتساء النبيذ. بادر بالكلام وكان ينظر إلى مكان من خلالي:

- نويتُ زيارتكم منذ عقود، حينها كنتَ شاباً مفتوناً بشبابك وحبك، وكنتَ تقرأ مذكراتي التي كتبتها في سجني المغربي، والتي سُرقت مني، ولم أشأ اقلاق حياتكم.

سارعت قائلا أدفع عن نفسي تهمة:

- صدّقني! ليس لديّ علم بسرقتها... لقد وصلت إلى يدي صدفة من صديق، واعترفت له بإسمه.



تجاوز جملتي وكأني لم أقل شيئاً، أو أنه لم يسمع شيئاً.

ليس من السهل تقدير استجابة الموتى.

أضاف بهدوء وأشواق شفافة:

- إشتقتُ لك مرة أخرى، حينها كنتَ في روسيا تحتضن زوجة جميلة وطفلين، تدثّر حياتك طمأنينة تامّة كأنك حيّ إلى الأبد، وكنت تقرأ مذكراتي أيضا، وتكتب هوامشَ عليها. أرجأتُ زيارتي للسبب ذاته.

نويتُ أن أتفوّه بشيئ، أي شيء يشغل الفراغات في حديثه، فبين جملة وأخرى كان يطيل الصمت يتأمّلني وكأنه يرسمني... في وجهه تجويفان واسعان، في عمقهما يلوح ثقب ضيّق يتخلّله ضوء أزرق. ربما يكون ما تبقّى من زرقة عينيه، أو لون السماء خلفه. قال:

- هذه المرّة كان لابدّ لي أن أقحم نفسي عليك وأنت تقرأها للمرة الثالثة.

اخترقني سهم ضيائه، وبنبرة اعتراف بالذنب قلت:

- نعم قرأتها ثلاث مرات، وأتمنّى أني لم أطّلع على سرّ ليس من شأني الاطّلاع عليه.



تلعثمت وكان في ذهني تقديم ديباجة عريضة عن كتابه، واسلوب كتابته، وفرادتها، وكيف تعلّمت منه صدق المفارقة، وتذوّقت فيه معنى الفكاهة. كان يدوّر كأسه، فملأته له وانا مرتبك. لم ينتظر أن تستقرّ الخمرة فيها، رفعها إلى فمه وصبّها في جوفه. لم يكن يشرب، بل يعبّئ انابيب منخورة فارغة... تجشأ عالياً. خرجت منه روائح وأصوات من كل جانب. تململ في جلسته، فتناثر منه تراب وبعض أشنات خضراء. ثبّتْ وجهه في وجهي وقال:

- كان يقلقني أمركم طيلة سنوات موتي.

وكأنه لطمني على رأسي سألته:

- أمري أنا؟

- نعم، أمركم أيها الشيخ.

نهض من مكانه. ضمّ ساقيه، ودفع ذراعه الممسكة بالرمح بعيداً عن جسده وكأنه حاجب بوابة ملكية، واسترسل في كلامه:

- كما قرأتم في مذكراتي التي لم أخفِ فيها غير المديح والثناء المفرط على فروسيتي، والذي كان



يخجلني ذكره، كم تعذّبتِ وقاسيت من أجل العدالة في الارض، وكنتُ أيامها صريع حب أجرجر قلباً جريحاً... ومع هذا كنت في بالغ السعادة يحدوني أمل بوريث لمهمتي المقدسة: محاربة الاشرار دفاعا عن العدالة والشرف، حتى عثرت عليكم.

توقّف عن الكلام يداري دموعا غزيرة تطفح من عينيه. أدار رأسه يمسحها بظهر كفّه، ويغلق فمه ليحبس بكاءً مبحوحاً. كان بكاؤه يخرج من كل مفصل من مفاصله، ومن كل فجوة بين أضلاعه، ولم استطع تهدأته. فواصل كلامه يقطعه بين فقرة وأخرى بنحيب عميق حادّ، واضاف بلغة نبي يقول كلمته الأخيرة:

- لقد قمتم بما يفوق الوصف والتصور... أنتم الراية التي تنضوي تحتها آمال البشرية جمعاء.

عند هذه الجملة تيقن لي أن الرجلَ ثملٌ، وإنه مازال في دوامة حروبه اللانهائية، أو أنه أخطأ المكان وجاء اليّ ظناً منه أني الرجل المعني بأمره: وريث مهمته المقدّسة. انتظرت طويلا حتى خف بكاؤه ولم ينتهِ بعد، وقلت بصوت يغطّي



نشيجه المتقطّع:

- ايها الدون النبيل! هل تعتقدون أنكم مع الرجل الذي تعنيه في كلامك، الذي "قام بما يفوق الوصف والتصوّر" قلت الجملة الأخير مقلداً صوته وطريقته في الكلام.

إبتسم بحزنٍ أحرجني وكأني أهنت كرامته، فهممت بالاعتذار، ويبدو أنه قدر حرجي فسارع بالأجابة:

- أنتم تُحديداً، المعنيّ في كلامي... نعم، أنتم... أيها الشيخ.

خارت حيلتي أمام تأكيده الأخير وبأسمي الصريح. سألته:

- ماذا فعلت في اعتقادكم كي أستحق منكم شرف التكليف بهذه المهمة التاريخية؟

تغيّرت نبرته. كان صوته يختلط بصدى من الداخل، من بين اضلاعه، وصدى عتيق أكثر فتوّة يأتي من بعيد عبر الجبال المجاورة. أخذت ملامحه صلابة حجرية وأردف:

- منذ طفولتك المباركة كنت تجمع الأسلحة والعتاد.



هزّ رأسه نيابة عني. يبدو أنه كان واثقا من صدقي واياه وأني لن أنكر ما يعرفه، وأضاف:

- عرفت بخبرتي في المعارك أنك تعدّ العدّة لحرب ضروس ضد الظلم الذي يجتاح العالم.

شدّ قبضته على رمحه وهزّه في الهواء وأكمل:

- الظلم يسود هذه الايام يا صاحبي، ومن يملك كل هذه القوة مثلك، عليه انقاذنا.

توسلت اليه:

- ايها الدون الخالد، انا بأمسِّ الحاجة لمن ينقذني... صدّقني! استنجدت، يوماً، بأسماك القرش في أعالي البحار لتنقذني... فأيّ عالم بائس بحاجة لرجل يائس مثلي؟ نعم جمعت ما كان أسلحة. جمعت كل ما هو بائد: رمّانات فارغة من البارود بلا نوابض، بنادق بلا أعقاب، خراطيش بلا رصاص، وكل ما يذكّرني أن الحرب قد ولّت. لقد تراكمت في البيت وأُفكّر بالتخلّص منها... أرجوك خذها إن كنت بحاجة لها.

ردّ عليّ بيقين مطلق، يقين الموتى بموتهم:



- أنا أعظم منك يأساً... لهذا قاتلت في حياتي ومازلت أقاتل في مماتي... الفارس لا يملك غير يأسه فهو وحده يمنح الانتصارات جلالها. أنه قوة الفناء التي تحرّك الوجود. اليأس وحده يدفع البحر الى الساحل ويعيده. إنه دورة الحياة الأبدية.

حمحم وتجشّأ مرتين ونهض مسرعاً. سقطت من خاصرته، من تحت الدرع، محارة صغيرة مازالت تحتفظ ببريقها، راحت تتدحرج بين قدميه. طأطأ رأسه يتابع مسيرتها حتى استقرّت على بطنها. تبسّم وكان جميلا. ركعت آخذه تذكاراً منه. بخفّة فاجأتني، وضع حربة رمحه فوق رأسي، ومسحة على هامتي ثلاث مرات، وكأنه يسنّه بحجر، وتمتم بلغة أجهلها:

- ديوسْ تَ بينديثَ.

دفعت رمحه عن رأسي ورحت للمطبخ أعد لنا ما نأكله علّه يستعيد عقله، وأمنح نفسي فرصة للتفكير بأمره... أو بأمري. حملتُ طبقاً كبيراً مليئاً باللحوم المقدّدة والأجبان الفرنسية والخبز والزيتون. كان باب الشرفة مفتوحاً. على



مقعده ترك كومة تراب نديّ وديدانا. خلف الغابة كان عمود غبار يصعد صوب السماء.

2

سأحارب أياً كان في طريقي أو في رأسي. لم أعد أطيق برودة حياتي وكساد عواطفي. لا أبحث عن مجد، إنما عن موضوع للحب. تحزّمت بنطاق عريض، وغرست فيه على بطني قبضة خنجر يماني. علّقتُ بعض الرمّانات ومسدس وبلي بلا نابض، إنما يحتفظ ببريق حديده. على كتفي علّقتُ ماسورة مزدوجة لبندقية برنو جيكية الصنع. على صدري علّقتُ حزاما ملأته باعقاب خراطيش صينية. في رقبتي علّقتُ ناظورا، وعلى رأسي وضعت قبّعة من الخوص اقتنيتها من سوق الحومة في جربة، وخرجت مثقلا بأعبائي. أخذت الطريق المحاذي للبحيرة بين أشجار الصفصاف: الطريق السري لاهوائي.

على جانبي الطريق كانت أزهار "أسنان الأسد" الصفراء تستعرض فتنتها تحت الشمس. بعضها انحدر صوب الماء، والصغيرة منها طوّقت جذوع البلوط العملاقة. قطفت



أكثرها نضارة وعقدت منها اكليلا. جاء أكبر من رأسي، فتدلّى على عنقي.

صادفتُ صبية يسبحون في عمق البحيرة يغنّون لفتيات على الضفة المقابلة. كانوا يتفوهون بكلمات ماجنة ويشيرون لهن باذرع منتصبة وقبضات مضمومة. صفّروا لي. لوّحت لهم وواصلت طريقي. سبحوا مسرعين ولحقوا بي عراة. قال أحدهم:

- تسمح لنا بالانضمام إلى حملتك العسكرية؟

رحّبت بهم ووزعت عليهم ما أحبوه من أسلحتي. الصغير طلب قبعتي. لبسها فغطس بها ولم يعد يرى طريقه. راح أمامنا يهزّ ردفيه بغنج، واطلق نشيده:

- يسار... يمين... يسار... يمين

عراة... عراة... نريد البنات.

انتظمنا في طابور خلفه، ووحّدنا خطواتنا وردّدنا وراءه:

يسار... يمين... يسار... يمين.

قطعنا الغابة من ضلعها المنحرف. في المنعطف إلى مركز القرية كانت مجموعة عجائز على الرصيف يتحدثن.



وقفنا أمامهن كما يقف حرس الشرف أمام منصّة رئاسية، ورفعنا بثبات أكفّنا وحييناهن باجلال تحيّة عسكرية مهيبة. صفقن لنا وهتفن بصوت واحد:

- أورا... أورا... أورا

طفنا دورتين في الساحة المركزية حول تمثال الفاتح الاول نلعب له باعضائنا، وعدنا على طريقنا نغنّي:

- عراة... عراة...ننيك الغزاة.

في طريقنا رمينا أسلحتنا في البحيرة وافترقنا.

بعد أقل من ساعة زارني شرطي مؤدب جدا، وطلب مني مرافقته إلى المركز المحلي للتحقيق بشأن حادث اليوم، وسماه (الحملة العسكرية العارية).

لبستُ أجمل ما عندي وتعطّرت وكنت لافتاً للنظر، ذهبت معه وكأني البي دعوة صديق إلى حفل باذخ. أدخلني غرفة القاضي وكان امرأة في الخمسين من عمرها. عدّلت جلستها ورفعت صدرها ودعتني للجلوس قبالتها، وسألتني عن إسمي وعنواني وتاريخ ميلادي ورقمي الوطني، وأضافت:



- لابد أنكم تدركون، بفعل اختصاصكم كأستاذ جامعة، كم نحن نقدر حالة المواطنين النفسية. وكم نحن أيضا حريصون على ثبات نظامنا الاجتماعي. هل تقدّرون آثار ما فعلتموه اليوم؟

أجبتها:

- كان يوماً عادياً من أيامي.
- في حساباتنا كان الآتي: قيادة حملة عسكرية، وإغواء فتيان دون سن الرشد، وإثارة غرائز العجائز الجنسية. وإلقاء السلاح...

انقطع صوتها وهي تعرض فلما يتابع خطواتي كلها منذ خروجي من البيت حتى عودتي اليه. كان مصوراً باتقان وحرفية عالية. طلبت منها أعادة فقرة طوافنا حول تمثال الفاتح الأول، ونحن نلعب له باعضائنا. التفتّ إليها كانت تلحس شفتيها.

لم أجد في رأسي أية فكرة يمكنها الدفاع عني، فبقيت صامتاً. قدّمت لي ورقة مطبوعة وطلبت مني التوقيع عليها. إطّلعت على فحواها:



أنا الموقع أدناه مواليد 45 , 04 , 05 التزم بعدم تكرار ما فعلته:

اولا: قيادة الحملات العسكرية.

ثانيا: حيازة الأسلحة المحرمة دولياً.

ثالثا:إغواء فتيان دون سن الرشد.

وقعتُ على الورقة وخرجتُ مسرعاً أضحك، فقد تجاهلت المرأة تدوين الزامي بعدم إثارة الغرائز الجنسية للعجائز.



أضحكُ على نفسي

أقاموني في وسط جزيرة، في وسط بحيرة، في وسط غابة، ومنحوني مرتّباً شهرياً لقاءَ تقاعسي عن العمل.

جندوا أسراباً من الغربان، وجحافل من السناجب، لحراستي. أيّلٌ عجوزٌ على قمّة جبل بعيد يرصدني بمنظار ليلي.

كلّ ما أفعله أنّي أرسمُ ما لا أراه، وأصطادُ السمك ساعات الفجر، أجمعُ الفِطر وهو نائم، وأقرأ ما أكتبه بصوت جهوري... وأضحكُ على نفسي.

لقد نفد نبيذي كلّه!

في آخر قنينة فارغة أرسلتُ رسالتي:

النجدة!



الأرصفة

الباعة يدخنون الأراجيل أمام دكاكينهم. الدكاكين مفتوحة، إنما لا أحد يرتادها. السفن لم تصل بعدُ من من جنوا، يقال أن قراصنة فينيقيين يجوبون البحار باشرعة حمراء خيطت في دمشق. القوافل بركت في الصحراء: العرب في حرب مع البربر منذ عهود.

لا لبّاناً حلواً، لا مراً، لا زعتراً من الجليل، لا حشيشة من قندهار، لا عسلاً أسود من عمان، لا قهوة من حضرموت، لا ملحاً من زنجبار، لا مبشرين، من روما، بالسيد المسيح، لا سَحَرَة من مراكش.

لا نسمع غير بقبقة الماء في الأراجيل على الأرصفة.



الغامض

الطريق الزراعي بين اشجار اليوكالبتوس يفضي إلى غابة تقطنها أشجار عملاقة ونباتات وأشنات وطحالب وزواحف وحشرات وأفاعي مسالمة. أقطعة كل يوم إلى جهة مجهولة بصحبة قريني. أغلب المرات أنساه خلفي وأعتقده مازال يرافقني فأبقى أتحدث طيلة الرحلة، وبصوت عالٍ. في العودة أجده قد تسلق شجرة، أو عند جذع يحفر اسماً كان يحبه على لحائها. الرطوبة هذا الصباح كافية لتلوين التربة بسحنة ندية بلون الحناء، ورائحة عفن حلوة تكمن تحت الأوراق المتفسخة.

يعرج الطريق صوب الجهات كلها؛ مرة تواجهنا الشمس الخفيضة، فننحني نتجنب أشعتها، ومرة تكون على جانبنا، أو تميل إلى الخلف، فننساها لبرهة. لا يذكرنا بها غير



ظلال عابرة تلقي نفسها تحت أقدامنا... ربما كانت ظلالنا!
...سرخي شجيرات السرخس على نشيج واطئ على هامش
جدول كسول لا يكشف أهمية ما، كأنه زائد عن الحاجة.
.ماطر على هامشه حجارة غير متجانسة ركلتها الاقدام بلا
مبالاة، فشكلت سورا وضيعاً، تكوّمت عنده أوراق يابسة
مغزلية، بعضها انطوى على نفسه، بعضها تكسر واختلط
نثاره بالتربة فباتت أغمق لوناً.

على جذع أعوج متين يعترض الطريق، جلسنا. كان مكاناً
مناسباً لنتقابل وجهاً لوجه، تشطر المسافة بيننا، شمس فتية
في مقتبل لحظات الصباح.

أعرف قريني جيدا، فهو لا يبادر بالكلام. لقد تعوّد على
ذلك، وكان سوء تدبير مني. أنا علّمته أن أفتح معه حديثي
بمقدمة لينة أتحاشى فيها إثارة عواطفه، وأغلب الأحيان
سوء فهمه الذي خرب علينا أجمل لحظات العمر. حاولت
جاهداً أن أنطق، هذه المرّة، بنبرة لا يعرف مراميها. لكن
تململه واقترابه الشديد مني، يشي أنه خمّن لعبتي معه منذ
خروجنا مبكرين مع الفجر. خمّن أيضاً سبب اختياري لهذا

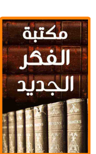


المكان والجلوس معه وجهاً لوجه. لكن هذا لم يثن عزمي عن القاء خطبتي الصباحية علية. قلت: لم يكن في نيتي التخلّي عنك لولا حاجتي للبقاء وحدي! ليس في نيتي أيضاً الإعتذار، فأنا لست مقبلاً على أمر سيء، كلٍّ ما هناك أني أتركك لا غير، وهذا من حقي الطبيعي.

عدّلتُ جلستي ولوّنتُ صوتي بحنان أبوي، وواصلت: إسمع! كم مرّة تركتني وحدي أستجير بك من دون أن تلتفت. مع ذلك مرَّ الزمن وبعثر كلَّ شيء. أنا لا أنتقم منك، لكن رحيلي إلى مكان مجهول...

قريني يعرف أنه ليس مكاناً مجهولاً لي وأنا أعرف أنه يعرف به، لكنه تجاهل الامر، وتركني أواصل كلامي: لابد أن أكون فيه وحدي... وحدي تماماً. لا أقول أنك أفسدت حياتي، إنما عليّ أن أتحمل نتائجي هذه المرة. كنتَ دائما، مع أنك لم تفصح بذلك، تغمز لي أنك صاحب النجاح بما أحرزه. في الوقت الذي كنت أغرق بشعور الفشل، كنتَ أنت تتبجح بغيره...

كنت أنتظر منه أن يقول شيئا يليق بساعة وداع أبدي، لكنه



على ما يبدو لم يستوعب الموقف، أو أنه يدّعي عدم الفهم..
هكذا كان يتصرف معي دائما، يخاتلني، ويبتز أسراري.

نظر في عينيي يستنطقني: نعم، إكمل حديثك.

أجبته وكانت كلماتي تخرج مسحوقة من بين أسناني: قلت لك أني أتخلى عنك إلى الأبد... وليس لدي اضافة على ذلك. أنت تعرف كم أكره العتاب في لحظة تحتم عليّ أن أكون قد حسمت أمري نهائياً. ليس لدي بعد ما تشاطرني به، انها فرصتي الاخيرة. وبفعل العشرة الطويلة بيننا أنصحك المضي من دون أن تلتفت الى الماضي. خذه! خذ ما تشاء، كل شيء... واتركني.

تحت قدميه كان يدحرج حصاة ملساء، ويدور بها كما الرحى، دفعها قليلا إلى أمام، وركلها بإتقان. تدحرجتْ، عبرتْ الطريق، قفزتْ فوق الأحجار الصغيرة، دفعتْ في طريقها الأوراق اليابسة والقت بها عاليا، انحدرتْ صوب الجدول واختفتْ. نطق الماء وسكتْ، ابتلعَ سراً كان بانتظاره منذ منبعه الأول.

التفتُ أتابعُ ظله الغامض، يتمدد ويستطيل حتى نهاية



الضوء. تطايرت خلفه الأوراق اليابسة، زحفت الحجارة على أثره، ونهض الجدول يتبعه.

الآن، أنا وحدي تماماً. قمتُ من مكاني، تأملتُ الطريق المقفر، تحسستُ عواطفي المطفأة. لماذا لم يقل شيئاً؟ لماذا تجاوزني وأهمل النجاح الذي حققته في التخلّي عنه؟ كنت أتوقع منه السجود عند قدمي يقبلهما ويتضرع، كنت أخذته الى قلبي مثل كلِّ مرة أهدّده بالهجران وأندم... عدتُ إلى مكاني وبي رغبة للبكاء.



الكراسي

فقدتْ الكراسي الكثير من هيئتها وسحنتها، بفعل الشمس والمطر. في الليل يراكمونها في فوق بعضها، فتغدو كرسياً عملاقا عالياً، بعشرات الأرجل وعشرات الاضلاع.

لم يُفتح المقهى المكشوف بعد، وهذه مناسبة للجلوس مجاناً، وإذا جاء أحدهم ذو شأن، سأقوم مدعياً المغادرة، وما أن يبتعد أعود إلى مكاني.

ليس لدي ما أدفعه ثمناً لكأس ماء. يفترض في حالة مثل حالتي، أن يبقى المرء في فراشه أطول فترة. جرّبتُ هذا من قبل وانتابني شعور بالتفسخ، أو أني أصبحُ مثل صرصار كافكا، إن لم أنهض وأغادر حالما أصحو.

لم أنم عميقاً ليلة البارحة، خلتني أموتُ إذا غفوتُ:



تتباطأ أنفاسي، يضعف الهواء في رئتي، يقلُّ الاوكسجين في دماغي، يسكت قلبي رأفة بي... وأموتُ.

غادرتُ البيت حالما استتبّ الضوءُ في السماء. خيرٌ لي أن أنام أمام أعين الناس كي لا يسرقني الموت. أصوات الشارع والأضواء ستبقيان عقلي يشتغل، وقلبي ينبض.

سحبتُ ثلاثة كراسي، رصفتها إلى بعضها، طويت نفسي مثل دودة ونمت عليها. أغمضتُ عيني أتابعُ الأصوات: صريرُ رافعة حديدية، وصناديق خشبية ترتطم بالارض. ليست بعيدة، ربما على مقربة شارعين. سمعتُ أحدهم:-

هل غفوتَ؟

كان في نبرة سؤاله كمن ينام إلى جانبي. ملتُ بجسدي قليلا، ودفعت ذراعي كلها تحت رأسي. عاودَ الحديث:- عادةً لا يأتي الزوار في هذه الساعة من الصباح، فنبقى فوق بعضنا. أعرف أنكَ لستَ نائماً، لهذا قلت أعرّفك على نفسي. أنا الكرسي الذي تحت رأسِكَ. حياتي كلها انقضت مع الناس والأجساد. نادراً ما تجلسُ عليَّ عجيزة تشبه الأخرى. لقد أصبحتُ مع الأيام خبيراً بها. كل يوم أسمع،



وأقراني أيضاً، القصص والنميمة والضراط، نقصّها على بعضنا في الليل. بالأمس جلستْ عليَّ إمرأة ذات أرداف شحمية مفروشة، فتحت فخذيها بطريقة ماجنة مثيرة. قُبالتها جلس رجل بسروال ناعم. مدّ ساقه بين ساقيها، ضغطت عليها وانحنت على الطالة بكل جسدها وقبلته، وحكّت نفسها عليّ. أحسستُ برعشة سادت في جسدها، سرت إليّ، فتململت واهتزت قوائمي وكدّت أسقط.

سمعتُ عمال المقهى يجرجرون الكراسي والطاولات. أحدهم كان يخبطها على الارض بلا ذوق. قال أحدهم:- يا سيد!... يا سيد!

قال الثاني: مخدورٌ.

قال الاول: ربما ميت.

قال الثاني: لا تلمسه! ربما مصاب بمرض معدٍ.

قال الاول: إتصل بالشرطة.



المملكة

وقف عنكبوت على أطراف مملكته، يتأملها. في تقاطع الطرق المدورة، في قلبها المحكم، ذبابة أسيرة ترتجف وتخّتض. لم يدن منها. كان مستسلماً للنعاس، يهدهده اهتزاز الشبكة.



أهواء الغربان

أنا مريض بسبب هجرانه ويشغلني كيف استعيده، يبدو أني خذلته، أنتظره كلّ يوم، أفتح نافذتي وأجلس قريباً منها إذ يمكنه أن يراني، او أتوارى في عمق المشغل وأجمد في مكاني أراقب التلّة القريبة قبالتي حيث رأيته عليها أوّل مرّة. وجدتُ نفسي أسير قضية لا خيار لي فيها. علاقتي به بدّدت بعضاً من وحدتي، بل كلها، وشغلتني. افتتنتُ به، حتى أني تجاوزتُ حدود اللياقة. قضيتُ ساعات طويلة أفكّر به قلقاً وشغوفاً. عندما يتأخّر، على غير عادته، أهيم في الشوارع أبحث عنه. لا أعرف أين أجده تحديداً فأقطع آلاف الخطوات وعيناي مصوبتان نحو السماء. أروح الى الأماكن التي يمكن أن يكون فيها مع الأخريات، فأرى العشرات منها. قد يكون بينها! فأنا لا أميّزه إلا بوقفته وهو



يدسّ رأسه بين كتفيه ويلتفتُ لي برأس ثابتة وعينين ثاقبتين، ويطلق نعيقاً أخذتُ أسمع فيه أسمي. غالباً ما كان ينتظرني قبالة البيت أو في الحديقة المحيطة بالمشغل. ساعتها أنسى مشاريعي وأذهب معه في جولة. أصبحتْ رفقته متعتي اليومية: أنا على الارض وهو يطير ويحطّ من مكان الى آخر فوق رأسي. القي له الطعام، يهبط يلتقطه، يطير قريبا مني ويرميه. هكذا حتى أتعب وأعود أدراجي. كان يشيّعني إلى أقرب مكان وهو ينعق مرة أو مرتين:

- غاق... غاق.

أول مرة التقيته كان ينبش تحت جذع شجرة وحده فيما الغربان الأخرى كانت تتهافت على فتات الخبز المتناثر عند منعطف الممر الترابي في الأسفل. قدّرت أنه لم يكن جائعاً أو متعففاً؛ فالخبز نعمة فائضة رخيصة يلقيها الناس للطيور طيلة الأيام. واصل ينبش، جسده الرمادي المغبر وجناحاه السوداوان ثابتان. مثل وتد كان رأسه يشتغل يدقّ وجه الارض. أخرج دودة والتهمها بسرعة. أجهل تماماً كيف كان له ذلك. أيكون رآها تحت التربة؟ هل شمَّ رائحتها؟ أو تكون



قد تحرّكت تحت القشرة فشخّص مكانها؟ أغلب الأسئلة مضيعة للوقت اذا كانت الاجابة عليها: لا أعرف.

آنذاك كنتُ أقضمُ تفاحتي ولم يبق منها غير لبها. فتحتُ النافذة بهدوء. رفع رأسه. جمدتُ في مكاني برهة، ثم مددتُ يدي والقيتُ بقايا التفاحة قريباً منه. فزّ وطار بخفّة الى أقرب غصن فوقه. أطلّ برأسه نحو أسفل ثم رفعه ينظر اليّ. هبط خفيفاً وتمايل في مشيته مسترخياً كأنه يتعكّز على ظلّه. دنا من عطيّتي ونقرها مرة وقلّبها مرتين وعافها وراءه. من دون دون أن يلتفت طار رشيقاً وغاب في الفضاء.

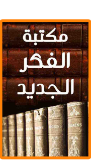
من عادتي اليومية قطع الطريق من بيتي الى مشغلي ماشياً.

- غاق...غاق

كان فوقي على مصباح الشارع ينوس برأسه. إنه هو. لوّحتُ له وواصلتُ الطريق. انعطفتُ صوب البحر فغاب عني. واصلتُ ورأسي الى السماء. رأيته على غصن عال أمامي. توقفتُ وحييته:

- غق... غق.

رد عليّ بصوت أعمق ثقة وكأنه يعلمني كيف أنطقها:



- غـــاق... غـــاق.

كررت وراءه:

- غاق... غاق

قطعت مسافةً بعيدةً وكان يرافقني، يغيب ويظهر. مرّةً على شجرةٍ ومرّةً على مدخنة... ومرّةً على الأرض يعرج أمامي... اندفعتُ نحوه أمازحه. طار فوق رأسي وراح أمامي منخفضا يساير مشيتي. سمعتُ خفق جناحيه، لطمتْ ريحها وجهي. أسرعتُ خلفه. زاد من سرعته وراح أبعد مني، فركضتُ باتجاهه. صرتُ تحته تماما، فهبط قليلا حتى لامسني ريشه وشممتُ عفن التربة في مخالبه، غرسها في هامتي وأخذني إليه، وصاح:

- غـــاق...

أسرع مندفعاً الى أمام. كانت قدماي لا تكادان تلامسا الارض حتى تطيرا فوقها. وجسدي معلقاً مشدوداً إليه. إنه يرفعني. فتحتُ ذراعي وقفزتُ عالياً، أعينه على التحليق بي. سقطتُ مثل كيس رمل وهمدتُ في مكاني. فرشتُ جسدي المتهالك على الأرض ووجهي إلى السماء. عاد فوق رأسي



يحلّق قريبا وهو ينعق بعنف:

غـــاق... غـــاق

ملأتُ رئتي بالهواء واطلقتُ صرخة شقت صدري:

غـــــــــاق.



بيلا روزا - ماريا

احتفلتْ جارتي، ذات الأسماء الثلاثة، بعيد ميلادها السبعين. عاشت حياتها مومساً محترفة لم تتقاعس يوماً واحداً عدا أيام العادة الشهرية، بعد إنقطاع الطمث، أخذتْ تشتغل كلَّ يوم.

هنّئتها وقبّلتُ وجنتيها وتمنيتُ لها السعادة في قادم أعوامها، ردّتْ عليّ:

- عشتُ في قمّة السعادة وأنا أتحسّس سعادة الرجال، أرى عيونهم تغيب، وأنفاسهم تتصاعد، وآهاتهم تتلاحق وكأنهم يأتيهم الطلق. ينهضون وديعين كسالى كالحملان، مفعمين بالإمتنان ورائحة المني.

حكيتُ لها عن تاريخ مهنتها في الشرق، وعن المومسات المقدسات في المعابد، وأن لهن آلهة وتماثيل مقدسة



وعشاقاً كتبوا فيهن أجمل الأشعار.

كانت تسمعني وهي غائبة، وكأنها تتابع طابور رجال ينهضون من مخدعها.

نظرتْ في عينيّ طويلاً، لتستوعبني وتستعيد نفسها، وطلبتْ بودّ عميق: أريدك تنحتني عارية؟

أتّفقتُ معها على ذلك، وأن أحتفظ بنسخة من تمثالها.

في الصباح تركتُ لها زنبقة وإلهاً ذكراً في مخدعها.



نزعات شريرة

لم تعد حياتي مجديةً، فاستئصال أطراف أخذت تنمو في جسدي، أمسى باهض الثمن؛ فتركتها كما هي.

بعد أيام، كما قال الطبيبُ، سأصبحُ أخطبوطاً: أتسلقُ الحيطانَ، وأصعدُ الأشجارَ العاليةَ، ولا أخشى السقوطَ... فالسقوطُ مروعٌ. أحتضنُ أكبر عدد من النساء الجميلات مرةً واحدةً، أمتصهنُ بلا رحمة بحجة الحب. أمسكُ بأكثر من كتاب وأقرأ، أرسمُ أكثر من صورة في وقت واحد، أعزفُ على مفاتيح البيانو كلها، ما يعجز عنه أمهر العازفين.

تنتابني نزعاتٌ شريرةٌ منذ طفولتي: أسرقُ التفاح من حديقة الجيران، وأنا في مكاني، أدقُّ بابهم، يخرجون فلا يرون أحداً. أخطفُ عجائز نمّامات، مثل كمثرى جافة،



أعلقهن على الأغصان. أضعُ واحدةً في عشٍّ جاري الغراب، هدية لعيد ميلاده.

لم تعد ملابسي تلزمني: أتركها عند باب الله، أكفاناً لشعوبه العارية. وأهاجر إلى مكانٍ ناءٍ.

لم تعد حياتي مجدية! قبل ساعات أعلنت عن نيتي: أهاجر إلى مكان ناءٍ. وكتبتُ وصيتي بهذا. أتفقتُ مع مهرّب عبر الصحراء، ودفعتُ له مكافأةً سخيّةً. إبتسم لي إبتسامةً إنسانيةً واسعةً. لملم أطرافي ووضعني في خِرج وربطني على ظهر البعير. في عمق الصحراء توقفنا نقضي حاجتنا. وقف خلفي وشهر مسدسه على رأسي، رجع إلى الوراء، ركب بعيره وراح بعيداً... توقف لحظات، التفت نحوي، ثم غابَ خلف الأفق.

يومين وأنا أعاني من العطش والجفاف. تخيّلوا أخطبوطاً في صحراء! ماذا عليه أن يفعل؟

مثل قصيدة قصيرة هبطت عليَّ واحدة من بناة أفكاري (أنا أفكر أحياناً). إنتظرت حتى مغيب الشمس، وأخذتُ أحفرُ بأذرعي كلها، أحفر عميقاً، حتى وصلت إلى قلب



الصحراء، إلى شرايينها الندية. غرست فيها مجسّاتي ودفنت جسمي بالرمل. لم يكن مني ظاهراً غير عينين وأنف. إرتويت وطاب جسدي.

قضيتُ الوقت أفكر بسؤال واحد: لماذا توقف، والتفت اليّ؟

عادَ بعد أيامٍ، وقف فوق رأسي شاهراً مسدسه في وجهي. سألني بغَضب شديد: لماذا لم تركض ورائي؟ لماذا لم تصرخ؟ لماذا لم تشتمني؟ قلت له بفم يابس: أنا لست بشراً مثلكم... أنا أخطبوط. بصق في وجهي وراح... راح بعيداً، توقف لحظات، التفت إليَّ، ثم غاب خلف الأفق.

إذا عاد مرةً ثانيةً، فسيقتلني حتماً. لكن قبل أن يفعل هذا سأسأله لماذا توقف والتفت إليَّ مرة ثانية!



ثآليلي

مع السنين ظهرتْ لدي ثآليل. ليس غريبا فهذا يحدث لكل الشيوخ. لأني أتغذّى جيداً وأمارس الرياضة، وبعد سنين من العناية الفائقة بها، انفصلتْ وأخذتْ تمارس حياتها بمعزل عني. واحدة صارت استاذاً كان يبهر طلابه بما يجتهد به. وواحدة صارت اباً مخلصاً، خدوماً ومطيعاً، وواحدة صارت عاشقاً أرعنَ تورط مع نساء بلا حذر. أخرى شكّلت نفسها رساماً يشبهني، نادراً ما تذكره كتب الفن، لم يجن من فنه غير متعة عابرة لا تفوق متعته وهو يسرح بكلبه في الغابة، ويعتقد أنه ناجح لأنه لم يخضع لمغريات السوق. واحدة صغيرة صارت كاتباً بعد أن خسرت الكتابة قلاعها وجنودها الأوفياء ولم يبق منها إلا حفنة مشردين وسجناء اوطانهم. واحدة صغيرة جداً أمست عاشق موسيقى لم



يتعلم العزف ولا الرقص مع كلٍّ مابذله من جهد. آخر المطاف دعاه معلمه وقال له: وداعاً يا بني أنك أصمّ، لكنه يصرّ على أن يسمع الموسيقى كلَّ يوم.

مشكلتي ليست مع هولاء الذين يدّعون الانتساب لي، فهذا فخر أن تتبعك عشيرة من الثآليل ذوات كينونات مميزة، إنما هي رغبتهم العودة الطفيلية الى جسدي والالتحام به. لا أعرف سبب هروبها من العالم وطلبها اللجوء مجدداً. عواطفي لم تسمح لي بالتخلي عنها، فقبلتها بلا شروط تُذكر.

الآن أنا أرسم، وأقرأ، وأكتب، وأمارس الجنس، وأسمع الموسيقى في وقت واحد. لا أعرف من منهم الأكثر اجتهاداً، فأنا لا أدفع أجوراً لهم، إنهم لاجئون في العراء.



جدّي

أنا سليل سَحَرَة ومنجمين. أجدادي يقرأون الغيب، ويقيمون علاقات مع مخلوقات غير مرئية. تقصدهم النساء العاقرات طلبا لشفاعتهم، ولطلاسم تزرع في أرحامهن أجنة.

آخر أجدادي أقنع النساء أنه خادم الجنّ وسفيره اليهنّ، وله قدرات جنسية خارقه من عنده، وكان يضاجعهن سفاحاً.

حظيتْ به زوجته العجوز مرّة، وعاتبته.

قال لها، أنه بريء مما تراه! فهو خادم الجنّ ويقوم بواجب مقدّس، مبارك من عنده.

قالت له: قل لسيّدك الجنّ؛ إني بانتظاره هذه الليلة ليباركني.

تلك الليلة، زارنا جدّي وبات عندنا. قصّ علينا حكايات عن النساء وخرافات عن الجنّ وهو يضحك.



حارس الموتى

منذ آلاف السنين، بأرض الجيزة في مصر، ربض أبو الهول: حيوان مستحيل، ذو عين ثاقبة. لا ينام ولا يحرّك ساكناً، يحرس الفراعنة الموتى. جاثماً على عتبة الوجود ينظر إلى أمام، يتأمل.

كلَّ ليلة مع حلول الظلام، يسمع الموتى يخرجون من قبورهم، يتسابقون، يتدافعون، يتصايحون، ثم يعودون إلى مثواهم قبل بزوغ الفجر.

منذ آلاف السنين يتساءل أبو الهول: ماذا يفعل الفراعنة الموتى خارج قبورهم في الليل؟

في لحظة شكٍ تاريخية، دار أبو الهول رأسه إلى الوراء، رأى الموتى يخرجون، كما في كلِّ ليلة: يتسابقون، يتدافعون، يتسلقون على ظهره ويتزحلقون إلى الأرض. ثم يعودون



يتصايحون ويتراشقون بالتراب ويتزحلقون من جديد، حتى آخر الليل ويعودون إلى قبورهم قبل الفجر.

بعد آلاف السنين، اكتشف أبو الهول ذو العين الثاقبة، حارس الفراعنة الموتى، حقيقة أن الفراعنة يلعبون على ظهره كل ليلة في غفلة منه.

دار رأسه إلى أمام، يفكر.



حفّار القبور

لا أخفي، وأنا أكتبُ، رغبتي في تسلّق شجرة الصفصاف أمامي. أصعدُ إلى أعلاها، آخذُ معي خبزاً وجبناً أبيضَ، وبعض حبات زيتون أسود، وورقاً، وكتاباً رقيقاً عن الأسماك، ولا أنسى قلمي الرصاص.

فقط لأبتعد عن الأرض، أقصدُ سطح الأرض، علّ قدمي تنسيان وقعهما، تنسيان تعاقب الخطوات وتنسيان التراب.

سأقرأ على راحتي، معلقاً وجسدي يتدلى إلى أسفل، وقدماي تمسكان بغصن يتراقص مع الريح. سأكتبُ على لحاء الأغصان ما لا تستوعبه أوراقي،

أو أستحي منه، وأرسمُ سهماً يخترق قلباً غضاً.

في نيّتي أرسم الأعشاش وهي مليئة بالبيوض، وأرسمها



وهي تفقّس، وأرسمها وهي تزقزق، وأرسمها وهي تطير.
وأذا تعبت سأكتب عن طفولتي،

التي لم أملك غيرها في حياتي.

توفي أبي وأنا صبيّ. يوم دفنه تعرّفتُ على حفّار القبور، كان جارنا لسنوات، وأنتقل للعيش في المقبرة يرعى الموتى. طلبتُ منه يشغّلني معه. بعد نهار واحد، إستدعاني إليه. علّمني كيف أحفر قبراً، وكيف أسدي جثماناً، وكيف أقفُ خاشعاً أمام أهل الميت وأنا أتمتمُ والدموع في عينيّ، لأنالَ رضاهم ومكرمتهم.

بعد سنتين دفنتُ حفّار القبور وحدي بلا دموع ولا تمتمات، ولم أتسلم مكرمة من أحد. لم تمض ساعات حتى تقاطر الموتى بانتظار قبورهم. حفرتُ طيلة اليوم، ولم أذهب الى المدرسة ذاك النهار، وحفرتُ في المساء، وعدتُ في الليل أحفرُ. في الصباح طلبتُ من أمي لملمة حاجاتنا، والإنتقال للعيش في المقبرة.

في العصر جاءوا بجنازة فتاة في مستهل الشباب. في القبر كشفتُ عنها قليلا... هل تموتُ البنات، ونهودهن نافرة؟



أهالوا أهلها حفنات من التراب عليها وغادروا مسرعين. كنتُ متعباً وجائعاً، وغادرتُ إلى البيت لأعود قبل المغيب وأكمل دفنها. كانت أمي قد أعدّت ما عندها، وأطيب ما فيها، حضنها الدافئ. وضعتُ رأسي وغفوتُ.

جاءتني الفتاة عارية تهز كتفي:

تعال غطّني!

نهبتُ الأرض حافياً، في ظلام دامس، يحدوني صوتها من داخل القبر، وأكملتُ دفنها. في الفجر استلقيتُ على رطوبة ترابها البارد وغفوتُ أكمل نومي. أيقظتني أمي وفي يدها صرّة طعامي. إنتظرتني حتى أكملتُ لقمتي وأبلغتني:

جاءنا ضيوف لا تستوعبهم الدار وهم يحملون لك الهدايا.

أخذتها من يدها وعدنا الى البيت. حشد من الناس تهافتوا عليّ، يقبّلونني ويبكون ويضحكون ويبكون. قالت أمها:

عادت لنا أبنتنا في أجمل وجه وأحلى ثياب.

في وسط الحشد، وقعت عيني على عجوز تشبهها تماما: شفتان حمراوان ونهدان نافران. غمزت لي وابتسمت.



حيوان

إشتغلتُ في سيرك جوّال في شبابي، فتوفّر لي مسكن وتنقل بين المدن، وتعلّم لغة الحيوان. اشتغلتُ أعتني بأقفاصها وأطعمها، وبعد انتهاء العرض أنظّف الحلبة.

خلال فترة عمل وأخرى آخذ قسطاً من الراحة بين الأقفاص. سمعتُ قرداً يولول ويشير لي أن أقترب. ذهبتُ اليه. قال لي:

- يبدو أن عملك مرهق.

أجبته: نعم، مرهق جداً.

قال:

- تعال نتبادل، تأخذ مكاني في الحلبة، تجري بعض الحركات، وتتحمّل، بعض الوقت، غباء المدرب... ويصفّق لك الناس. بعض النساء يغريهن التصوير



معي وأنا أحضنهن.

أقنعني بلا حذلقة ولا وعود كاذبة، فأنا أعرفه صادقاً ومخلصاً.

أطلقتُ سراحه وجلستُ مكانه في القفص.

طردوني من العمل ونقلوني إلى حديقة الحيوان. المهنة الوحيدة التي أجيدها.

كعادتي أنظّف أقفاص الحيوان وأطعمها، وأخذ قسطاً من الراحة بعيداً عن عيون الآخرين. سمعتُ قرداً يولول. إقتربتُ منه. قال لي:

- يبدو أن عملك مرهق.

أومأت له برأسي، نعم!

قال: تعال مكاني، لا تفعل غير الوقوف ببلادة أمام الناس... تبصق عليهم أو تعفط لهم، وهم يضحكون.



دلميشين

يرافقني كلبي المرقّط "دلميشن" أينما ذهبتُ. تقول إبنتي إنه يتمدّد عند الباب، أذا خرجتُ بدونه؛ لا يأكل، لا يشرب، ويعوي أحياناً.

أخذتُ أعلّمه القراءة والكتابة، ليقرأ لي، إذا أصابني العمى.

آخذه إلى المرسم: مكاني السري الذي أمارس فيه عاداتي المكشوفة. يتمدّد أمامي ورأسه بين ساقيه، يراقبني. حين أنظرُ إليه، يرفعُ رأسه ينتظرُ كلمة، أية كلمة، حتى لو كانت: إغرب عن وجهي!

أعودُ أرسم. يعود إلى وضعه: يتمدّد ورأسه بين ساقيه.

رسمتُ اليوم لوحةً بالأسود ونقّطتُ جزءاً منها بنقاط



سود كبيرة. نهضَ ولحس يدي. قلتُ له: أنا لا أرسمكَ أيها المرقّط، أنا أرسمُ أزهاراً في حقل.

علّمتُه الرسم بذيله، يغمسه في قنينة الحبر الصيني، يُعطي ظهره للّوحة، وكأنه يبول عليها، ويرسم.

فقدتُ البصر كما توقعتُ، ولم يعد تلمّس الطريق ممكناً بغير الخوف، والذراع تمسك بالهواء، لتلافي السقوط في أية خطوة. لازمتُ مرسمي. أجلس مثل مخرج سينمائي، وأكلف دالمشين يرسم بدلا عني:

رجاءً، ضع غيمة على اليسار، فوق رأس الرجل تماماً.

إرسمْ، في الوسط سرب لقالق مهاجرة.

نقّط ملابس المرأة، وضع على رأسها قبعة قش كبيرة.

لا تنس، ترسم متسولاً يتبعه كلب، وتمثالاً من البرونز في الخلف.

بعد أيام من العمل الشاق، جاءت إبنتي لتأخذني لدار العَجَزَة لأقيم هناك. شاهدتْ اللوحة، وتحرّك فضولها، وقالت: أنت فنان عظيم... أبي! ترسم المرأة في جيب الرجل على صدره، وكأنها منديل حريري مطوي باتقان،



وعلى رأسها لقلق، في منقاره غيمة مرقطة وكأنها البوظة. في أقصى اللوحة تمثال الملكة ملقي على الارض، وكلب مرقط يجثو عليها، يرضعها بنهم... كيف أمكنك ذلك؟

ناديت على دالميشن، أخذته بين ذراعي، وقبلت رأسه.



ذئب يهرب من قصيدة

إلى صلاح فائق

1

بالأمس ليلاً طُرقتْ بابنا، راحت زوجتي تفتحه، صرخت مرعوبة: "ذئب"!

أخذتْ ثيابها ولبست معطفها وهاجرت إلى مكان مجهول.

فتحتُ له الباب. كان ذئباً عجوزاً يبكي. أدخلته بعناء شديد، وقدمت له شراباً دموياً ولحم ضأن طازج. رفضها وكاد يتقيأ. أخذته الى حقل بجوارنا يغص بالخراف، علّه يشتهي واحداً، خاف منها ولاذ خلفي. واصل بكاءه وهو ينشج ويمسح أنفه بسروالي.



توسّلت اليه أن يخبرني قصته. توقّف عن البكاء ولم يتوقف عن النشيج، وقال بصوت مجروح: "حبسني في القصيدة وخرج، خرجت وراءه، وتهت في الطريق".

ما كاد يلفظ كلمته الاخيرة، حتى عاد ينحب ويولول. سألته: "إهدأ رجاءً، من هو الذي حبسك في القصيدة وخرج؟"

رد عليّ بحسرة عميقة: "لا أعرفه".

سألته: "ألم تقرأ اسمه على القصيدة؟

ردّ: "لا أعرف القراءة".

طلبت منه أن يصفه. قال وهو يغمض عينيه: "يعيش في عزلة، وكأنه سجين محكوم بالإعدام، يلبس نظارات سميكة، تساقط الشعر من مقدمة رأسه، يجني كلباً كسولا، يكتب، يحب البحر والقراصنة، يضحك على غفلة بصوت عال، ويشخر في نومه".

عطفت عليه ودعوته أن يبق معي، بعد أن هاجرت زوجتي وبقيت وحدي. ردّ عليّ بسرعة ونهض من مكانه وتوجّه صوب الباب: "لا، لا، أنا أحبه، لقد غيّر حياتي،



غيّر طبيعتي. أشعر في قصيدته أني أرق من فراشة، وأخذت أقرض شعراً أجمل من شعره".

ودّعني باطمئنان وتواضع جم، وهو ينحني في كل خطوة.

2

بعد حادثة الأمس، وصراخ زوجتي المرعب، أن ذئباً داهم بيتنا، وهروبها إلى مكان مجهول؛ خاف أهالي القرية، وحزموا أمرهم على مغادرة المكان والهجرة الى الأبد.

أسدلوا ستائرهم، وأطفأوا مصابيحهم، وأغلقوا أبوابهم بالمتاريس، ولم يبق غيري يشعل شمعةً في الفضاء المهجور.

في أول الليل دُق الباب. نظرتُ من ثقبه السحري، لا أحد خلفه. فتحته متوجساً، وجدت الذئب يجثو ورأسه يتدلى بين كتفيه الضامرين، كمن يهيؤنه على نطع، ومازال يبكي، يكرّر نوتة قالها مئات المرّات. بكلمات جافة سألته: "نعم، ماذا وراءك؟"

أجابني بيقين عميق كأنه يقدّم نشرة أخبار: "طردني، ولا أعرف غيرك في هذا العالم".



دلق رأسه، وأخذ يبكي، وسال مخاطه على صدره، وسقط على العتبة. بعضه تناثر على قدمي. قلت مستاءً: "هيا أدخل"!

جثا رافعا صدره. جلست قبالته وجهاً لوجه على ركبتيي، وسألته: "بالأمس، قلت لي أنه تبنّاك وأسكنك قصيدته. لماذا عدت لي؟"

ردّ عليّ منفعلاً: "غصب مني لأني غادرت البيت، وكنت عندك ليلة البارحة".

التفت صوب الباب ودنا بخطمه مني وأضاف: "إنه يغار من الفنانين. مع أني إعتذرت منه، لكنه لم يصدّق أني تهت في الطريق، وأنك قدّمت لي العون والكرم. صرخ بوجهي واتهمني بالخيانة العظمى، واتهمك بسرقتي منه... والله... والله، قلت له الحقيقة، لكن غضبه الجنوني دفعه ينتف شعر رأسه، ولم يبق منه إلا خصلة متهدّلة على جانبه الأيمن وكأنها ستارة سائبة مهملة. تصوّر! اتهمني بسرقة قصائده وتهريبها خارج الحدود. فتش فمي وأذني وذيلي و.."اقترب مني وكتّ في أذني كلمتين. طأطأ رأسه وقد احّمرت



وجنتاه. صرختُ: "غير معقول... كيف يفعلها؟ كل هذا لأني استضفتك لساعات"

استدركت ظنوني وأضفت: "هل تخفي عني شيئاً غير هذا؟"

لوى عنقه كمن يخنقه شيطان: "بعد مغادرتي بيتكم، صادفني شاب وسيم في الطريق، سألني عن وجهتي، ومن يكون صاحبي. أبلغته اسمه، واتضح لي أنه من المعجبين بشعره، ويقتني دواوينه، ويحفظ له قصائد ويعرف عنه غرائب جمة. ظل يثرثر بها حتى غفوت ونمت في حضنه، و..."

قاطعته وأنا مأخوذ بلغته الشعرية الجميلة: "قلت لي بالأمس، أنك تجهل إسمه... لقد كذبت عليّ إذن!"

أسرع بالجواب: "لا... لا... صدّقني! تذكرته صدفة. تذكّرت جارته العجوز، وقفت مرةً تحت شرفته، وصاحت عليه بالاسم وشتمته، وشتمت الشعراء كلهم."

تعبتْ ركبتاي من الانثناء على الارض، فعدّلت جلستي، وبجفاء تام أبلغته: "إسمع! أنا لا أطيق الكذب، وليس في



نيتي خوض معارك مع الآخرين، خاصة الشعراء، ولست من قافلتهم، فلا ناقة لي فيها ولا جمل".

حرّك أذنيه ورفع رأسه وهو يكرّر مع نفسه: "لا ناقة لي فيها ولا جمل".

ما كانت هذه الملاطفة لتوقفني عن مواصلة كلامي: "بسببك اتهمني شاعرك المبجل بالسرقة والسطو على ممتلكاته المادية، ويعني أنت، والمعنوية، ويعني شعره".

كان يتلوى وكأن سياطاً حاذقة تصلي ظهره. لم أشعر برحمة عليه وواصلت:

- ونشر الخبر على صفحات الجرائد، والانترنيت، وعرض إعلانات ضوئية في الساحات العامة تُظهر صورة كاركاتورية لي، هارباً وأنا أحمل أكياساً تتساقط منها قصائد وحيوانات وبحار وزوارق وكلّ ما كانت تنطوي عليه قصائده... هل يستحق عجوز كاذب، مثلك، كل هذا العناء والفضائح؟

ما كدتُ أكمل كلامي، حتى انفجر بالبكاء وهو يختض وينفض لعابه ومخاطه على الأرض. سارعت لأنهي هذه



المهزلة: "اسمعني! كما لو إنك تسمعني لآخر مرة. عُدّ إلى غابتك! إلى وطنك الأم. خذ لنفسك أنثى وانجب ذئاباً حرةً. إختر لك مغارةً في أعلى جبل، يمكنك منه أن ترى القمر وتعوي له، وهو يضيء أنيابك ناصعة البياض. أهرب! ".

قمت لأصب لي كاساً، فقد نشفت ريقي وأنا أدبج مستقبله، وواصلت كلامي:

"عشّ بعيداً عن الشعراء، فهم مرضى، يحشرون أصابعهم في كلِّ ثقب ينالونه".

والتفت إليه لأرى ردة فعله وأنا أذكر، جهاراً، ما فعله الشاعر به.

كان قد غادر البيت، وترك الباب موارباً، تسللت منها ريح تحمل زنوخة حيوان ونباح كلاب تطارد صيداً.



ساعة الحائط

إلى سهيل سامي نادر

قضيتُ اليوم الأول معه في الحديث عن سفره وإقامته الجديدة، عن المدينة، والناس فيها... وحياته هناك. حكى لي أنه قضاها تائهاً، مضطرباً:

- إني أختنق كلما استعصى عليّ تذكّر أمر ما. ينتابني شعور حيّ وعميق بأني أموت، يتضاعف مع كلِّ جهد للتذكّر. كلّ شيء أخذ يهرب مني، يتبدّد، وأنا أتبدّد معه.

تحوّلت الأماكن، المصاعد الكهربائية، والطائرات، والقطارات، والغرف إلى قبور ضيّقة لا يطيقها؛ فيهرب بكلّ إرادته العليلة إلى خارجها، إلى الفراغ.



- الهرب حيلتي الوحيدة التي أجيدها. بي رغبة للمغادرة إلى الأبد.

عقله إنتقم منه بهذه الطريقة، حالما قرر الهجرة. هو يُدرك أن عقاباً ما قد حلّ به: عليه أن يتذكّر كلَّ شيء، وأن لا يهمل ماضيه الذي توقّف عن المضي أبعد من سبعين عاما، فما تبّقى منه لا يعني غير عادة حياة. كان عليه أن لا يغامر بنفسه، أن يتوقّف، أن يلتفت، أو يعود أدراجه. لكنه فضّل سماع نصيحة الطبيب، وأخذ يتناول حبة دواء، يوميا، تُلقي به خارج الزمان والمكان.

حكى لي كم كان يؤنسه المشي وحده. يستدرج الذكريات مع كلِّ خطوة بسلاسة، بلا عنت؛ فيستعيد كينونته، ويُمسك أبعادها. يخرج من بيته، يذهب في خط مستقيم إلى نهاية الشارع بمحاذاة الجدران، يعبر شوارع أخرى، ويعود على نفس الطريق بخط مستقيم. لا ينعطف، ولا يجنح نحو طرقات فرعية. إنه يخشى المنعطفات. فهي غادرة يكمن خلفها التيه. اليمين واليسار لم تعد اتجاهات دقيقة يثق بها. قال:

- دختُ! حياتي انعطفتْ بدرجة حادة.



أخذتُ أطيل زياراتي، والمبيت لديه ليوم أو يومين. تماما مثل أذرع أخطبوط تمتد الأشياء في بيته. كان يصعب عليّ الحركة دون أن أسقط شيئاً في طريقي. أصص أزهار بلاستيكية تزدحم في كلِّ مكان؛ في زوايا الغرف، على الطاولات الصغيرة في غرفة الضيوف، في زوايا المطبخ، على طاولة الأكل، تحت الرفوف وفوقها، في الحمامات فوق المغاسل. على الحيطان تلتصق أزهار بلاستيكية من كلِّ الأصناف، والألوان، ذوات أوراق صلبة برّاقة بلا رائحة. في الشرفة عشرات منها في أصص كبيرة تتشمّس في العراء وقد تغيّر لونها. شجرة صغيرة لا مثل لها في الطبيعة، تستند إلى قاعدة معدنية، تحمل فاكهة كروية، مطلية بلون فضي، تخيّم فوق الهاتف، وتغطّيه. طاولة الطعام الصغيرة في المطبخ احتلتها القناني، وعلب مليئة بالأقلام، وقصاصات ورق مطوية، وأشرطة ربط، وقراصات، وعلب أدوية فارغة، وعلب كبريت، وأكياس مساحيق تذاب بالماء: كاكاو بالحليب، قهوة بالحليب، زعتر وزنجبيل... لم يبق على الطاولة الضيقة مكان لغير طبق أو طبقين. الستائر مسدلة على شبابيك مغلقة، وستائر الخشب مسدلة خارجها. نافذة



واحدة تفضي إلى الشرفة تغطّيها ستارة شفّافة تطرّزها أزهار وردية كبيرة جداً. لا فراغ في البيت، لا هواء. سألته:

- ما حاجتك لكل هذه الأزهار الميتة؟

- لا شأن لي فيها... إنها خيارات زوجتي. يغريها أن تملأ كلَّ فراغ في محيطها.

سمعت، خلفي، تغريد طائر مرّتين أو ثلاث. لم يكن حقيقياً. إنه تسجيل سيئ لصوت طائر.

- هذا تلفونك يغرّد؟

أدار وجهه صوب الحائط:

- لا، إنها الساعة.

التفتُ إلى ساعة دائرية معلقة، تحيطها، بلا نسق، صور الأبناء والأحفاد والزوج في أعمار مختلفة في وضعيات عائلية حميمية، وإبتسامات تقول: كم نحن سعداء هذه اللحظة. الساعة تزينها، بدل الأرقام، صور طيور انتخبت من كلِّ غابة في الأرض. سألت نفسي؛ إن كانت أماكنها، التي وضعت فيها بدل الأرقام، تتعلق بطبيعة حياتها. البومة في مكان الساعة الثانية عشرة، تنعق في منتصف النهار، وفي



منتصف الليل. البطة الكندية بدل الخامسة. نقّار الخشب في الساعة الرابعة. ببغاء أحمر يسمونه "الكردينال الشمالي" في الساعة الثالثة. وطائر يشبه الهدهد أسمه "ملك صيد السمك" في مكان التاسعة. قلت له:

- لم أكن أعرف اهتمامك بالطيور.

- العائلة متعلقة بهذه الساعة. تنقّلت معنا من بلد إلى آخر بعناية فائقة، مقمّطة بالملابس كأنها رضيع.

كانت عقارب الساعة تشير إلى الخامسة، فغرّدت البطة الكندية. التفتَ إليَّ بنظرة يملؤها اليقين وقال:

- سمعتْ! إنها البطة الكندية. يعني أنها الخامسة.

لم يعد ينظر إلى الساعة. يكفيه سماع تغريد طير من طيورها فيعرف الوقت. يعرف مكان الطيور في دائرة الساعة المؤطّرة بالذهب، مكانها في دائرة زمانه المفتوحة على كلِّ الأصوات والأصداء والمصادفات.

قلت له:

- لكنها الساعة السابعة الآن! طيورك تأخّرت ساعتين عن موعدها.



- طيوري تغرّد في الماضي... لكنه ماض قريب على أية حال. سأصلحها وأحتاج إلى مِفَك.

غادرته، وسمعت المفاتيح تدور في الأقفال. عند الباب همس لي قريني:

- سيخرّب الساعة بلا شك.

قلت:

- تخيّل أنه يفتحها ويربط أسلاكها خطأً، فتأخذ البومة تنعق بدلا من ملك صيد السمك، والبلبل الأمريكي يغرّد بدلا من البطة الكندية، والليل يصبح نهاراً، وتختلط المواعيد وتضيع.

أضاف قريني:

- أو تفرّ الطيور من إطار الساعة، تطير، تحلّق في الغرف، تحطّ على رأسه وكتفيه وتغرّد في جوقة يقودها، يؤشر لها بعكازه، وهو يتجوّل في أرجاء البيت. ربما يغويه الحال ويخرج إلى الشارع، فتهبط طيور السماء تغرّد معه.



- لا قيمة لأرقام الساعة، ما دامت الطيور تغرّد وتوقظ إحساسه بالزمن.
- لكن هذا زمنٌ افتراضيٌّ، وليس الزمن المتّفق عليه.
- لم يعد صاحبنا يتّفق مع قضية... فما بالك إذا كانت الزمن، زمنه هو.

حملتُ قنينة خمر يفضله، وبعض الأطعمة الجاهزة، وزرته مساءً. كانت الساعة مبطوحة على طاولة الطعام. سقط نظري عليها مقلوبةً على وجهها. أدركَ أني على وشك السؤال بشأنها، قال:

- فَتَحتُها... كانت الأسلاك مربوطة خلاف نظامها؛ أسلاك عقاربها لم تكن تتّفق وأسلاك الطيور. إتّفاقها ضروري لنظام الوقت.

بسبابة غليظة، قصيرة، شَعْراء، أشار إلى مجموعة أسلاك دقيقة جداً، وواصل شرحه:

- هي هكذا؛ إثنا عشر سلكاً، لكل ساعة سلكها الخاص، يقابلها إثنا عشر، واحدٌ لكل طائر. في الساعة الواحدة "الخدّاع"، وفي الثانية "القرقب"،



وفي الساعة الثالثة "الكردنال الشمالي"، وفي الرابعة "نقار الخشب"، وفي الخامسة تأتي "البطة الكندية"، وطائر "النمنمة" في الساعة السادسة...

شغلني قريني عن مواصلة الإستماع لشروحات صاحبي، وسألني:

- أي طائر منها يحب؟
- أعتقد النمنمة، فهو أصغرها وأعلاها صوتاً، وهو أذان يقظته في السادسة صباحاً، وأذان قراراته الليلية.

عدتُ أسمع الشرح، وكان قد وصل إلى نهايتة:

- في الساعة الثانية عشرة تجثم البومة القرناء على سمت الساعة.

بكلتي يديه، بحرص شديد، رفعها إلى مكانها وعلقها. سألته:

- هل لديك خارطة توضح ارتباطاتها؟
- لا، اجتهدت فيها.

همس لي قريني:

- قلت لك إنه سيخرّبها! لا أعتقد أنها ستغرّد بعد اليوم.



لا أبواب للحديث معه، ولا جسور. ندخل موضوعاً، ونخرج منه إلى موضوع آخر. لا أعاني معه من سوء فهم أو قصور معرفة. لا يقطع كلامنا غير "لا أدري"، التي يكرّرها بإصرار عندما يفتح المستقبل ذراعيه للمشاريع والتوقعات، أو يقطعه بأغنية ذكَرته بها كلمة وردت في حديثنا. لطالما يدثرنا وجوم، يطوينا على أنفسنا، وكأننا نكتشف عرينا على حين غرة. قال:

- قررت إغلاق حياتي بالشمع الأحمر.
- من أين لك بالختم الملكي؟
- أختمها بحذائي، فله نقش بارز ومميز.

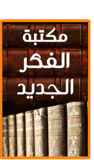
وقلب لي حذاءه.

طوال الوقت لم أسمع طيراً يغرّد. مضت ساعات المساء، والليل، ومستهل الصباح. إلتفتُ اليها، وسألت:

- ما بالها؟
- أطلقتُ سراحها.

همس قريني:

- يا خيبتي! لقد أطلق سراح عقله. إعرض عليه تصليحها.



عرضت عليه فكرتي لإصلاح الساعة. وأنا أشرح له ما خمنته في مشكلتها. قاطعني:

- لا أحد غيري يعرف خطوطها. إنها تشبه أعصابي، لها ارتباطاتها السرية.

قام بجديّة، منحنياً، وكأنه مقبلٌ على رفع قبة السماء على كاهله. أنزل الساعة من مكانها، بطحها على الطاولة، فك غطاءها، وأخرج أحشاءها. ذهبتُ للمطبخ، أكثر من مرة، أنقل الكؤوس والطعام. غسلت الصحون، ورتبتها، ومسحت الطاولة. كان قد أنجز عمله وأغلق غطاء الساعة وأعادها إلى مكانها.

ودعته. قبل أن يغلق الباب ورائي، أطلقتْ الطيور تغريدها واحداً بعد الآخر، بنظام دقيق. قطعتْ دورة اثنتي عشرة ساعة بسرعة، ولباقة، واعتدال. اختزلتْ اليوم بلحظات. كانت فرصة لقريني، فصاح عالياً من خلف الباب:

- دعها تغرّد إلى الأبد!



سلحفاة

ليس بالضرورة أن تكون نرجسياً لترسم نفسك! لكنك، قطعاً، تكون وحيداً ومعزولاً وأنت تواجه قرينك الذي لا يعرفك، والذي لا تعرف غيره.

قبل أن تضع خطوطك تكون قد تفاهمتَ معه. ولابد أن يكون هذا التفاهم واضحاً، ليس لكسب الود، بل لكسب الوقت؛ فسوء الفهم قد يستغرق الحياة كلّها.

تماماً كما حدث لي مع سلحفاة تعيش معي منذ مئات السنين. عجزتُ عن الوصول معها إلى وسيلة للتفاهم، أو الإتفاق على أبسط قواعد الحياة بين المخلوقات.

لم تتعلم كيف تحافظ على سجادتي الفارسية، نظيفة، وأين عليها القاء فضلاتها اللزجة، أو الإستئذان عند المغادرة أو الدخول.



في الآونة الأخيرة، أخذتْ تغيب ليوم أو يومين. ليس في الجوار ذكر ينفعها أو أنثى (أنا لا أعرف جنسها، ولا ميولها الجنسية، فهذا ليس من شأني). ليس في البيت باب أو نافذة.

في تلك الفترة ذاتها فقدتُ أوراقي: قصائدي وتعاليمي، التي من شأنها تغيير العالم وتحرير العبيد. من دونها سيبقى حالنا على ما هو عليه... كما الآن. ربما لعصور قادمة أخرى.

أعود إلى سوء الفهم. في نية صادقة رسمتُ لها صورة بألوان الزيت على قماش نادر؛ لأكسب ودّها وتعيد لي أوراقي. كيف لي أن أقنعها أن قراءة ما فيها قد يغيّر طبيعتها، يفقدها درعها الأسطوري المزخرف، يصيبها بالبرص، أو يحيلها إلى سحلية خضراء أو نمر وردي...؟



أنا التمثال

عندما ينصبون لي تمثالاً. بمعنى أدقّ: عندما أكون تمثالاً، انتظر حتى ينام الناس، ولم يبق في الشوارع، غير الحارس الليلي.

أنتظره يقترب مني، يقترب أكثر، حتى يصير تحتي تماماً. أصرخ، وأقفز من منصتي. يسقط الحارس مغشياً عليه. آخذ مفاتيحه وهويته الشخصية، والأهم منها: حافظة نقوده.

أرفعه (فأنا قوي من البرونز)، وأضعه في مكاني، على منصتي الخاصة: التاريخية المدوّنة في الكتب، المغطاة بذروق الطيور.

أحاول أن أضعه كما كنت أنا. لا أذكر كيف كنت (أقصد كيف كنت أقف، فالكينونة تعنيننا شيء آخر، نحن التماثيل البرونزية).



أضعه كيفما اتفق، وأهرول إلى أقرب حانة، قبل أن تغلق أبوابها. يكون العمال يرتّبون المكان، ويضعون الكراسي فوق بعضها، فتغدو ناطحة للسقف.

أنا مدمن خمور، كنت طيلة حياتي في ساحات الوغى، "واضحاً كرصاصة" من قال هذا القول الجميل تنيرني القنابل الفسفورية. لم أكن أدخل الخنادق، خائفاً، بالرغم من توجيهات القيادة. كنت أتجول في العراء، سيجارة ثخينة، طويلة، كوبية، فاخرة تملأ فمي، وفي قلبي عدم مطلق... حسناً!

أدخل الحانة، أزلزل الأرض بحذائي العسكري، العالي، البرونزي، أحمل خوذتي تحت أبطي (انها واحدة من أعّرق أخلاق المحاربين القدماء).

يهرب صاحب الحانة والعمال، حالما يرونني، فأبقى لوحدي. أخلط كل القناني (فوق الأرفف) في جردل كبير، وأشرب. أرفع أنخاب رفاقي الذين قضوا في الحروب (لا أذكر أسماءهم، لكني أذكر وجوههم فاغرة الفم، وعيونهم المليئة بالشقاء). أبقى أشرب حتى الصباح.



يكون الحارس الليّلي قد فاق من غيبوبته ويتحرّك ببطء، يتجمهر الناس حول منصته (أقصد منصتي)، ينتبه لهم، وينتبه لنفسه أيضاً، فيعود إلى وقفته الأولى (أقصد وقفتي) بلا حراك، فهو يخجل من نفسه: حارس ليلي يطرد تمثالاً من مكانه التاريخي، ويحتله. ياللعار! أية أمانة نتوخاها من حراس الليل؟

فيظل بلا حراك، حتى يصدق نفسه أنه تمثال: إنه أنا.

أنا، الآخر، أصدق نفسي: أنني هو؛ فمفاتيح بيته في جيبي، وأحمل هويته الشخصية، وحاملة نقوده، وعنوانه.

أذهب إلى بيته (عملياً، أنه بيتي)، تكون زوجته نائمة (عملياً، إنها زوجتي)، تحلم، تنتظر مداعبات الصباح، من حارس ليلي يقضي ليله يحرس الظلام.

أنحني عليها وأقبّلها طويلاً. تشتمني، وتشتم الخمرة، وصانعها، وساقيها، وشاربها. تدفعني بعنف، أسقط على وجهي، فوقها.



غافل عبّود

هذا ما حدث في الشارع قبل أيام؛ كان ضياء الظهيرة يهتك البصر وهي واقفة تواجه الشمس وقد تفشّى الاعياء فيها. يدها مسبلة والاخرى تظلّل عينيها لترى بوضوح ما كان يحدث: ظلّها يهربُ أمامها يطوّح بذراعيه تتبعه ظلال لا نهاية لها. اعتقدتْ أنّ التعب قد نال منها واخذها الى ظنّ خاطئ؛ أن يكون ظلّها قد خرج عن طاعتها وتناثر على الارض في كل مكان. رأتْ واحدا امامها يجثو، فيما هي واقفة، وواحدا خلفها يهرول هاربا منها، فيما هي واقفة، وآخرون يطوفون حولها يهزّون رؤوسهم كالدراويش، فيما هي واقفة.

- الشمس مصدر الخلل!

هزّت رأسها تؤكّد صواب اعتقادها وأخذت تتجنّب الشمس وتقفز مسرعة الى ظلال الجدران قبل ان يظهروا



لها. كانت تقطع الشوارع تقفز من شمس الى ظلّ ومن ظلّ الى ظلّ.

- أعرف كيف أدفنهم احياءً. قالت منتصرة لنفسها.

غير أنّ الجدران سرعان ما تنعطف وتغيب ظلالها وتجد نفسها في الشمس مرّة اخرى... الشمس ذاتها، التي يفرّخون تحتها، يتكاثرون، يتحرّكون ويهرولون وراءها وامامها وعلى جانبيها؛ فتهرب الى اقرب ملاذ ظليل يبتلعهم.

- الظلال الكبيرة تأكل الظلال الصغيرة. اكتشفت حقيقة فرحت بها وحلا تدمن عليه.

مع الايام تضاعفت الظلال وشغلت كل حياتها. كانت تراهم يتحرّكون في الظلام، واحيانا تتحسّسهم يندسّون معها في الفراش. اهملت نفسها والقت بمواد زينتها ومساحيقها والعطور النادرة والامشاط... من عاج الفيل وسن الحوت ومن خشب الابنوس المعطّر بزيت العنبر، التي كانت مولعة باقتنائها. لم تحتمل اية اضافات على حياتها. طردت تاريخها وهجرت صديقها. وضعت كل هداياه ورسائله المعنونة لها في كيس شفّاف عند مدخل العمارة لمن تتملّكه الغواية.



لم يبق ما يذكّرها بنفسها غير لمحة خاطفة في المرآة، قبل ان تخرج للشارع، تكون كافية لتكشف الوجه الوحيد الذي تعرفه جيدا، والذي يمكنها رسمه عن ظهر قلب: جبهة عريضة عالية كمن في مقتبل الصلع يغطّيها ما تبعثر من خصلات. ثمة صفحة وجه متواضع ينتهي الى حنك دقيق. انف مغزلي يتوسط وجنتين فسيحتين، حقلان من نمش. عينان لوزيتان يكلّلهما جفنان ناعستان. تقف برهة تتأمله وتطرح عليه سؤالها الابدي:

- نعم،

تنتظر برهة، ثم تضيف:

- ماذا وراءك؟

تعرف أنه لن يجيبها، ويكون انتظارها بلا معنى؛ فتغادر مسرعة. هذه المرة، قبل أن تغادر مكانها وتخرج تماما من زئبق المرآة تأكد لها أنّه لم يغادر مكانه وبقي عالقا هناك. أدارت رأسها بسرعة لتصطاده؛ فزّت في المرآة رؤوس كروية، تطايرت وهربت خارج اطارها، تنقر الزجاج في طريقها، ثم تنطفئ على الحائط. بعضها تساقط على رخام



الارض وتهشّم برنين ناعم. كانت الرؤوس تشبه رأسه، لكنها اصغر منه. رؤوس من زجاج لم يصهر بعناية.

عادت الى المرآة باصرار. كان وجهها المستفز وشعرها الساذج الخامل على كتفها يتقاسمان الحضور الانساني كله. تمعّنت طويلا، لم تر غير رأسها وحده:

- قلتُ لك ماذا وراءك!... ها... ماذا؟

انها تحرجه دائما بهذا السؤال وهو يحرجها دائما بصمته. كلاهما يختبر الاخر. انتظرت برهة وغادرت بلا حذر وصفقت الباب خلفها. انثالت من المرآة عشرات الرؤوس؛ اسقطها الصوت. تهشمت وتناثرت شظاياها على رخام الحمام. وقفت خلف الباب تسمع تساقطها، حتى همد آخرها... طوت شالها الفضفاض اكثر من طيّة على رقبتها وغادرت:

- الى الجحيم... كلكم... اللعنة!

هكذا صرخت بوجه غافل عبود قبل سنوات وهي تتركه وراءها بلا ندم... قبل ايام فاجأها في منعطف الشارع. عرفت منه أنّه كان يقيم خلفها طيلة السنين الفارطة. لقد كان بعيدا على اية حال مادام غائبا عنها.



- المسافة لا تقاس بالخطوات، بل بالأشواق.

سرّت لنفسها بهذه الحكمة، فهي حكيمة كما ترى نفسها. كانت واثقة من أنّه لن يبرح مكانه مذ تركته؛ لهذا لم تسأله أين يقيم.

لم يكن غافل عبود، في يوم ما، يشكل حلّا ولا مشروعا. قضى أيامه معها كما كان في يومه الأول حين مدّت له يدها لتتعرف عليه. أخذها كما لو أنه يلمس يد إنسان لأول مرة. يتحسّس أصابعها عقلة عقلة ويحسبها، كأنه أعمى يتلمّس أشياءً غريبة. كرّر اسمها مرتين ومرة ثالثة همسا. عرّفها على إسمه. نطقه بمخارج حروف صافية وكان يتهجّاه كمن يتذكّره... ها هو أمامها ولم يذهب الى الجحيم كما دفعت به.

- نفسه... غافل عبود؟ قالت له.
- لا ليس نفسه ايتها الاميرة؛ هذا عبود بلا غافل... ضحك معها واستدار بخفة ليأخذ اتجاهها.
- ماذا حلّ بنصفك الاول؟
- فقد حياته في غفلة.



ضحكا بصوت عال وكانا يمسكان ببعضهما... يمسكان بالضحك كي لا يهرب منهما.

- لم يبق منك غير العبودية. قالتها وكأنها تجيب على سؤال لم يُطرح.

- العبودية أثمن رأس مال.

هز رأسه لينهي المساومة بأعلى ثمن.

كلاهما لم يكن راغبا بالسؤال عن الماضي، أو ربما مازال الوقت مبكّرا لاجتراره. كلاهما يدرك ان لا شيء يتغير، بل يمضي... يمضي الى حتفه، وانّ الارض لن تعكس دورتها لمجرد صدفة لقاء. عليهما ان يجدا في خطوتهما القادمة معنىً للكلمات. الشوارع تزحف... تجري كالأنهار.

- الى اين؟... سألها.

توقّفت فجأة وقابلته. وجهها كان قريبا جدا من وجهه. بشرتها ناشفة لوحتها الشمس. عيناها غدت اضيق مما كانت. تكاثر النمش على وجنتيها. النمش الذي كان يرسم منه خرائطَ واشكالا كلما تأملها، كما كان يحاول مع النجوم



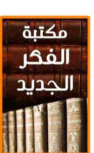
قبل ان يأخذه النوم.. باهتا فتح فمه، وقبل ان ينطق وضعت اصابعها اللينة على شفتيه:

- هجرتك بسبب هذا السؤال... يا غافل!

تحت أصابعها تحركت شفتيه وشكّلت قبلة. قبلة عارمة كهربت يدها؛ فجفلت وسحبتها. مازال يشتغل باللمس كما عهدته، وابتسمت لنفسها اعتزازا بقدرتها على معرفة المكنون.

المشي عبر ميناء الشحن بين حاويات البضائع المصفّحة، ذات السطوح المضلّعة، يشكل مدينة، وطرقا، وابوابا مغلقة باقفال. طرقات ضيّقة، بالكاد يمكن المرور عبرها، خالية من اشارات المرور واعمدة الكهرباء. مدينة بلا أرصفة على جدرانها المضلّعة لافتات بحروف كبيرة وعناوين خارج البلاد عبر المحيطات. عالم في حاويات حديدية محكمة الاغلاق لم تشحن بعد. طرق هذا العالم قصيرة تتغيّر مداخلها، تتغيّر مطافاتها كل رحلة. بعضها يغلق. بعضها يرحل الى الابد.

أخذتْ يده المهملة وكانت ناعمة. التفتتْ اليه. التفتَ



اليها وحسب... لقد فعل كل شيئ. استنفد كل حيله. استخدم كل ما يعرفه في قواميس اللغة وقواميس اخرى. حفظ من اجلها الشعر وصارع من اجلها وحوشا ضارية واشباحا. مع من يتصارع هذه المرة لو عاد الى الحلبة وقد خذلته الاحلام؟ لقد دفعت به الاميرة الى الجحيم بقوة. لو لا تمسّكه باقدامها لسقط الى الهاوية... اخذ الدفء يعشعش بين اصابعه. ونسي يده في يدها. نسيها برمتها. انشغل في حساباته: كيف عثرت عليه، مع انه كان يلتزم بالمسافة ما بينهما دون خلل طيلة سني الجحيم؟ لماذا التفتتْ هذه المرة؟... ماذا تفكّر الأميرة الآن؟... ضغط على يدها وكانت دبقة تتعرّق. سحبتها والتفتتْ اليه.

- أنت تطاردني...

قالت جملة بيضاء خالية من التعبير ودلفت الى ممرّ ضيّق بين حاويتين طويلتين وتركته وراءها. تسلّلت كأفعى بين جدران الصفيح. انعطفت الى مضيق آخر كانت الشمس تتمدّد فيه. الشمس التي تخشاها. حاولت الالتفاف والعودة. المكان ضيّق. علقت مابين رغبة الفرار الى امام وخوف يسحبها الى الخلف. تكاثروا حولها... صرخت:



- غــــافــــل...

غافل كان يسمعها، لكنه كان في الجحيم. تكسّر صوتهاعلى صفيح الحاويات، شربته الاقفال، تفتّت في الطرقات المعدنية الضيقة.

على حافة الرصيف في وجه البحر جثت تتقيأ. جثا خلفها يسند كتفيها، حتى افرغت معدتها.

- أميرة...

قالها ولم يكرّرها ثانية. خلف السفن المتراصّة على الارصفة المحمّلة بالبضائع اجهضت الشمس دمها في حضن البحر. اخذها الى صدره، شمّ شعرها الميّت، أخذ وجهها بين يديه وقبّلها.

في آخر المساء تتّسع الظلال، تستطيل، تتمدّد، تتكتّل وتتّحد في جسد واحد وتكوّن ليلا هندسا يبتلع الكون. في الليل، كل ليل، يتّكئ غافل عبود على الحائط المقابل لشباكها، يراقب الستائر التي تتحرك احيانا، فيتحرّك مثلها. يفهم انها تداعبه من خلف الستائر فيغرق بسعادة لم يجرّب غيرها. لا احد في حياته ولا في العالم كله، تمكّن من اسره هكذا كما تأسره اميرة.



إنّه يعرف إنه واحد من ظلالها، لكنه يشكّ بأنها تدرك إنّه كذلك. فهي تهرب منهم جميعا وتطردهم وتطرده. ما زال يشكّ في اللحظة التي التفتت اليه في المنعطف، ويعتقد انّه هو من اثار انتباهها في لحظة فقدان الصبر. لم يعد باستطاعته الاختفاء.

في داخل البيت تفتح أميرة مصباحاً صغيراً، تضعه على الارض، يكفي لتلمس الطريق. إنها تعتقد ان المصابيح المعلقة تقليد مزيف للشمس. انها تقزّم الاشياء وتفضحها. ظلال الأرض واطئة ووضيعة تتصاغر عند الاقدام وتتمسح بها. أما المصابيح على الأرض فهي تمنح الكيانات ظلالاً أسمى وتهبها عمقا في الأعلى؛ على الحيطان وعلى السقوف.

ظلّ اليفاً في البيت لا يني يتحرك، لا يهدأ، يتسلّق الحائط، يصعد حتى السقف، يزحف عليه، ثم يعود ينزل من الجهة الاخرى ورأسه الى أسفل. تسأله أميرة:

- كيف تراني؟

يرد عليها:



- كما ترينني.
- سأعلّقك بالسقف فأنت تغيظني.

أخذت حبلاً وصنعت منه انشوطة. وضعت كرسيّا تحت خطاف المروحة الفارغ وصعدت، وعلّقته هناك.

في الشارع، قبالة الشباك، كان غافل عبود يذوب فرحاً يراقب الظل على الستائر يمازحه؛ يتكسّر على طياتها، ينزل ويصعد على مخملها، يتأرجح، يدور على نفسه معلّقا في المروحة السقفية. ظلّ يشبهها.



كلب منتصف الليل

تعوّدت على ارتياد حانة بالجوار، وقضاء ساعات الليل فيها. إنه حل توفيقي لأزمتي، واحد من عشرات الحلول، فأنا لا أنام لأيام متتالية، أو أسبتُ لأيام متتالية. لم تشكل هذه الحالة مشكلة لي، ولا للأطباء الذين أشرفوا على علاجي. فأنا أعرف السبب، لكني لم أصرح به من قبل: إنه عقلي، عقلي الاشد رفضاً للواقع.

شربت كفايتي وخرجت. عند باب الحانة أخذت نفساً عميقاً من نسائم مقتبل الخريف في نهايات الليل. مشيتُ كفاية، ويجب أن أكون قد وصلت البيت. لكني أمام بيتاً ليس بيتي. الشارع ليس هو شارعي. اليافطات من حولي مكتوبة بلغة لا افقهها. ادركت ان المدينة ليست مدينتي...

"أين وصلت؟".



أضيئ شباك أمامي في طابق علوي. خلف الستارة شبح يتحرك ببطئ. صحتُ عاليا: "هاي... أرجوك". أزيح طرف الستارة، وكشفت إمرأة عن وجهها وحملقت في الليل البعيد. أومأتُ لها وصحت: "أرجوك، سيدتي". أسدلت الستارة. بعد لحظات أطفأت النور.

مشيتُ أبعد من المكان، سمعت نباح كلب. لا بد أن أحدهم أخرج كلبه لنزهة مبكرة. هرعت نحوه. في المنعطف شاهدتُ كلبا وحيداً يتبول على الحائط، وكان منشغلاً تماماً، يسمع خريراً على الحجر. فتحت سروالي وبلت في الجهة المقابلة.



طعام الولي

قطعني أهلي عن المدرسة؛ فليس للعائلة من يعيلها بعد مقتل أبي في السجن. كانت تلك أول طعنة في قلبي الصغير، أعمق من موت أبي، الذي لا بد من موته ككل الأباء.

إشتغلت خادماً في ورشة حدادة خارج المدينة. في الطريق بين قريتنا والمدينة، يقع مقام لولي بائس يسمونه صالح. يزوره الناس ويتبركون بترابه، ينذرون، ويهبونه فاكهة وطعاماً وأشياءً أخرى.

سألت أمي عن سرِّ هذا البذخ. قالت بحزم: يموت من أخذ منها!

في العيد أخذت أختي الصغرى، ورحنا لمقام الولي الصالح، وطلبت منها أن تأخذ من الطعام وتأكل، أخذت وأكلت... ولم تمت!



كل يوم أخرج مبكراً للعمل، أخذ في طريقي ما يمكنني حمله من طعام الولي الصالح، وأبيعها في السوق. بعد الظهر أذهب للمدرسة. أعود في المساء، أغدق على أمي، وأهدي أختي الصغرى ما يفرحها، وأطمئن عليها أنها لم تمت.

أكتب هذا الآن في مقهى قريب من الجامعة، ما بين محاضرتين، وأنا أتناول طعاماً اشتريته من صبي في طريقي من القرية.



كنوت سولسيدن

لم تكن لدي أية إمكانية أخرى لشراء مكان يأويني غير هذا: كوخ ريفي خشبي، بعيد عن المناطق المأهولة، وعن الشوارع المعبّدة والخدمات البلدية، وسط غابة، على قمة هضبة عالية يخترقها جدول صغير شفيف ينحدر من أعلى الجبل بلا انقطاع ولا تردد عبر الصخور. يجري ماؤه صافيا فوق حصى ملونة، يدغدغها ويداعب جنباتها، فتضحك بلا توقف ما دام يجري. لم أكتشف، حتى اليوم، لِمَ تضحك هكذا عاليا.

الكوخ عبارة عن صندوق مربع كبير يتوسطه موقد حجري تصعد منه مدخنة باخرة قديمة. كيف وصلت إلى هنا؟ شقت السقف وخرجتْ من أعلاه، وتطاولت حتى أعلى شجرة بجوارها، كانت كأنها وتد عظيم يدق الكوخ



بالأرض، عنقها مائل صوب الشمال. الجدران بُنيت من جذوع أشجار صنوبر غشيمة تصالبت وعُشقت ببعضها وشكلت هيكلا يبدو في ضلعه عند الباب مائلا قليلا. على كل جبهة منه نافذه مربعة، يدخله الضوء أينما مالت الشمس. الكوخ بلا كهرباء، يكتفي المرء في ستة أشهر من العام بضياء الشمس التي لا تغيب. في أشهر الخريف والشتاء حيث يغطي الثلج كل مكان، يغدو العالم أبيضاً ناصعاً تحت ضوء القمر، أو أوقات سطوع الضوء القطبي في ليالي الصحو، حيث تهرب العتمة، تخاف حركة الضياء السماوية الجبارة، وتختفي في عمق الغابة الكثيف بين الادغال. عدا هذا فالشموع والحطب كفيلة بقضاء الحاجة، والقراءة العسيرة.

مازلتُ في منتصف الخمسين، لكني أبدو دون هذا العمر، لنشاطي وقوة جسدي مفتول العضلات. لوّحتني الشمس وصبغتني بسمرة حارة براقة، ومنحتني ملامح هندي أحمر. هكذا كانوا يمزحون معي، وكان يبهجني ذلك.

ربما من المناسب أن أكشف السبب الفعال لوجودي هنا في أقصى العالم، غيرُ أني لست قادراً على شراء سكن



في المدينة. الحقيقة أني إشتغلت منذ شبابي حطاباً. ليس حطاباً بدائياً، كما توحي الكلمة، إنما كنت أعمل في قطع الأشجار في الغابات النائية. قضيتُ كل سنيني هناك، أعيش في بيوت مؤقتة تشيّدها الشركات لعمالها. زياراتي للمدينة كانت متباعدة، تقتصر على يومين أو ثلاثة أقضيها لدى أختي الكبيرة التي ربّتني بعد وفاة أمي المبكرة. أغلب الوقت أقضيه مع بناتها التوأم وزوجها موظف البريد العليل، نلعب الورق والدومينو. لفترة غير طويلة، كانت لي علاقة بأرملة أبات لديها بضعة ليالي، انتهت بوداع بارد بسبب رغبتها بالعيش إلى جانبها والبحث عن عمل آخر. عدا هذا كانت الشركات توفر كل مستلزمات العيش في الموقع: ملابس عمل وطبابة وطعام وشراب بأسعار خاصة. بعضها يأتي هبات من أصحاب الغابات التي كنا نقوم بتحطيبها لأشهر طويلة. الراديو وحده كان يوفر لنا صوتاً من خارج الغابة.

كنت أتقاسم أقامتي مع كنوت سولسيدن (جهة الشمس): شاب لا يتجاوز الرابعة والعشرين عاماً. نقيم في كوخ صناعي صغير يسع لسرير مركب ذي طابقين، وطاولة وكرسيين وكنبة وديلاب ملابس مزدوج، على فردة باب منه



مرآة طويلة، كانت زائدة عن الحاجة، لم نقف أمامها ولا مرّة، غير هذا كانت تأكد على وجودنا المعلن. الحمامات الجماعية في الزاوية البعيدة من الاكواخ، بجوارها مطبخ هو عبارة عن مجموع كوخين، واحد للطبخ والآخر الملحق به تتوسطه طاولة طويلة خشنة الوجه، متغضنة، تحيطها مقاعد بلا مساند. شيء ما يشبه الغابة، فالأشجار بلا مساند أيضاً. ذلك بعض من انسجامنا مع الطبيعة داخل بيوتنا، أما خارجها، فعلينا جلب الماء من مصبه، وهو ماء سلس ينحدر بين صخرتين عملاقتين. سميناه "شليل" تصغير شلال. كذلك جمع الحطب للمواقد وللمطبخ، وتنظيف الساحة الوسطى بين الاكواخ، وساحة الرياضة خلفها. كنا نحصل على الإضاءة بفعالية مصابيح غازية، أربعة منها عملاقة كبيرة في الأركان الأربعة للمجمع السكني، الذي أطلق عليه شريكي كنوت "المربع البشري" في أحدى الأماسي التي جمعتنا وسط الساحة بعد العشاء. لم نناقشه في معنى ذلك وقبلناه لغرابته وجماله الشعري.

كنت أزوّد نفسي بالكتب في كلٍّ زيارة للأختي، وأعيد ما قرأته في فترة غيابي عنهم. غطت الكتب جدران الصالة



وزحفت إلى ممر مدخل البيت، بأرفف غير متجانسة، تضاف اليها رفوف جديدة كلما ضاق المكان، بعضها دُست تحت الأسرة. كانت تسلية زوجها الذي لازم البيت بفعل المرض.

كنوت سولسيدن صموتٌ، في عينيه بقايا نظرات نستها الطفولة وراءها، نظرات متسائلة تكتنفها حيرة تزداد اختلاجا كلما طال النظر في عينيه. حاولتُ الدخول معه في حوار حول مواضيع شتى، كان يجيب باقتضاب يشي بعدم الرغبة في الحديث. قرر أن ينام في الطابق العلوي من السرير المركب دون أن يطرح الأمر للاختيار. كما لو أنه ملزم على ذلك، خدمة لي بفعل فارق العمر: ثلاثون عاماً. أبلغته إن كان يرغب في السرير السفلي. هز رأسه بيقين قاطع. لقد اختار أن يكون عالياً، بعيداً عن الأرض، أقرب إلى السماء. كان يوقظني مرات عدة بحركة عنيفة وهو يتقلب في فراشه. لكني تعوّدت طيلة حياتي في العمل، العيش مع غرباء، يتغييرون مع مواسم العمل. تعوّدت أن يكون الحال هكذا: يتقلب جارك فوق رأسك، أو يقرض أسنانه ويصرّ بها، أو يشخر، أو يضرط، أو يتكلم مع أشباح أحلامه.



كنوت سولسيدن (جهة الشمس) يقرأ كتباً وقصصاً تتعلق بالخيال العلمي. لديه مجلات عدة مرسومة رسوماً جميلة ومتقنة لقصص عن كائنات وأكوان غريبة. كان ينظر إلى كتبي من دون أية رغبة في التعرف عليها، وكنت أتركها، عادة، على الطاولة وسط الكوخ. مرّة شاهدته يقلبُ كتاب اندرية مالرو "المذكرات المضادة" ليقرأ تقديم دار النشر على غلافة الاخير. لا أعتقد انه قرأ سطرين ودفع الكتاب بعيداً عنه.

كانت متعتي كبيرة وأنا أتأمل نظراته الحائرة حين أسأله، كما لو كنت قد اغتصبت صمته المقدس بأسئلة سخيفة من قبيل: هل لديك أُخوة؟ هل لديك فتاة تحبها؟ من هم أهلك؟ يضيف لنظراته الحائرة ابتسامة هادئة طويلة الأمد، تبقى مرسومة على وجهه نهاراً كاملاً، واذا وقعت عيناي في عينييه، مرّة أخرى، يعيد الأبتسامة ذاتها باصرار ووضوح أكبر. كنوت طفل طويل القامة، لا يبكي حنيناً لأحد، لا يرغب بشيء، كينونة تعيش لذاتها ومكتفية بذاتها، وبما لديها. ماذا لديه؟ هذا ما لا أعرفه!



كنا نشتغل ستة أشهر في العام، وحالما يحل الخريف نقطع على أمل العودة مع الربيع. تكون الثلوج قد ذابت وامتلأت عيون الأرض، وفاضت في الوديان، وراحت تهدر في الجداول الصخرية المنحدرة إلى مصباتها البعيدة.

أقضي أشهري خارج الغابة أعمل في ورش لقطع الأشجار ونشرها وتقطيعها، فمنها ما يُشذب ويبقى أعمدة كبيرة، ومنها ما ينشر ألواحاً مختلفة السمك والعرض، وما يبقى من جسد الشجرة يثرم ناعماً لتصنيعة الواحاً مضغوطة في معامل خاصة. تكون الورش عادة في أطراف القرى على تخوم الغابات. الإقامة فيها لا تختلف كليا عن الأقامة في ورش الغابات، إنما أقرب إلى المدنية، مما يضيف مشاغل أخرى، وأوقات ذات نسق خاص لا أجيد التعامل معه، لا علاقة لها بما تعوّدت عليه في حياتي الغابية.

أنا إبن الغابة البار. أعرف اشجارها واحدة واحدة، أميزها من رائحة لحائها، من لون الأشنات عليها، من صوت فرقعة أخشابها في المواقد، ومن طعم الأوراق التي اعتدّت مضغها ساعات العمل. أطلق علي كنوت لقب "السنجاب الأحمر". سألته:



يمكن أن أكون هندياً أحمراً، وليس سنجاباً أحمراً؟

رد عليّ:

الهنود الحمر لا يأكون من الأعشاب غير المروانة، أما أنت تقضم الحشائش وكأنك خروف جائع.

لطالما أختبرت نفسي في معرفة صنف الشجرة وعمرها ومكان زراعتها، لهذا الكرسي، أو تلك الطاولة في الأماكن التي أرتادها. باب الحانة الإرلندية في القرية من خشب الجوز اليوناني غامق اللون، نقي الجسد مثل دم أغريقي أصيل.

كنت على وشك النوم، نهض كنوت ونزل من سريره وخرج من الكوخ بهدوء تام. قبل أن يغلق الباب وراءه، دخل هواء يحمل رائحة راتنج من صنوبر مازال ينزف.

في الصباح مبكراً، على عادتي، أذهب للحمام. لم يكن كنوت في فراشه وقد رتبه باتقان تام. تجوّلتُ في المكان وراحت عيني عبر الفضاء الضيق الذي فتحناه في الغابة. طريق للهواء يخترق الغابة إلى قلبها الأسود، يصعد إلى أعلى وتغيب نهايته في ذرى الأشجار العملاقة المتسامقة هناك.



شاهدتُ، في وسط ساحة اللعب، أربعة أعمدة طويلة وضعت على الأرض وشكلت مربعاً، نُصبت أربعة أعمدة اخرى في الزوايا تلتقي في قمتها، مربوطة بحبل تدلى طرفه الى وسط الهرم الفارغ... هرم فارغ! انه واحدة من أفكار كنوت ولا شك.

لم يكن كنوت بيننا على طاولة الإفطار. تساءل عنه العمال، إن كان مازال نائما. أبلغتهم أنه لم يكن في فراشه عندما استيقضتُ. لم أبلع لقمتي بعد، أبلغتهم أنه غادر الكوخ في منتصف الليل، وكنت على وشك النوم. استدركتُ أنه لم يتحرك ليلتها على عادته في المنام، فقلت لهم اعتقادي أنه لم يبت في سريره ليلة البارحة. لم يبد اينا منهم رغبة في الكلام، واكتفوا بتبادل نظرات تنوي الاتفاق على ما يجب أن يقال، أو على جواب لأسئلة لحوحة واجبة في الدواخل.

قرّر مسؤول العمل الانتظار لساعات، لربما يعود، قبل ابلاغ المركز عن فقدانه. في الظهيرة امتلأ المكان برجال غرباء وكلاب واجهزة سوداء صغيرة وسيارات ذات مرسلات لاسلكية فوقها. بعد ساعة سمعتُ صوت طائرة



مروحية تحوم في الاجواء، تبتعد وتقترب. استدعاني رجل منهم، وسألني إن كنتُ سمعتُ منه أو عرفت وجهته. ابلغته اعتقادي بغياب كنوت الطوعي، اختفائه من الوجود بارادته، والغائه لوجودنا. نظر اليّ المحقق بجدية عالية وطلب مني تفسير اعتقادي ودعمه بالقرائن والبراهين والأدلة والتواريخ. أبلغته أنه مجرد ظن قد يكون خاطئاً، لأبعد نفسي عن جدل لا يجدي مع شرطي مهمته هي العثور على مفقود أو على أدلة فقدانه، وليس البحث الوجودي في أمر كينونة غابت بارادتها. قلت لنفسي: أُسكتْ! فليس هذا وقت فلسفة. أشرت له أن ينتبه للهرم العملاق الفارغ وسط الساحة، والحبل يتدلى من قمته إلى وسطه مثل انشوطة مشنقة. التفت إليّ مستاءاً كما لو أني قلت نكة في وقت غير مناسب.

أخفقوا في العثور على كنوت (جهة الشمس). بعد يومين من البحث عنه بكل الوسائل أعلن المركز عن فقدان الامل وتوقف البحث عنه رسميا. عاد العمال إلى عملهم. أصبحت المناشير الكهربائية أعلى أزيزاً، وأطول وتيرة. كانت الاشجار تسقط صريعة تهوي على أغصانها، تتكسر، تتهشم، ثم تسقط على بطونها بصوت ترابي مكلوم. شيء من



هذا سمعته من كنوت يوم أمس وهو يمسك ذراعي يهزني:

إسمعْ الشجرة!

تابع سقوطها،

تتلقف اغصانها الأرض أولا،

لتجنب الشجرة رعب سقوطها.

اسمعها وهي تتكسر،

تتفتت،

ثم تفقد عزمها

على تلافي الفاجعة.

اسمعْ!

كيف يرتطم الجذع المنهار

على الارض.

الأرض تصرخ خائفة،

تهرب من مكانها،

وتلوذ بين أقدامنا ترتجف.

ندمت ساعتها أني ضيعت وقتا طويلاً من دون إثارة رغبته في الحديث... انه ينطوي على روح غامض.



بعد غياب كنوت جهة الشمس، تعاظمت اسألتي عن جدوى استمراري في العمل، وقد بلغت سناً يجيز لي التقاعد واستلام مكافأة مجزية، ومرتباً يغطي نفقاتي ويفيض. وفكرت بمساعدة أختي في نفقاتها، فقد لازم زوجها البيت دون عمل والبنات كبرن وزادت حاجاتهن للمال.

حصلتُ على حق التقاعد وعلى مكافأة لخدمتي طيلة ثلاثين عاماً. نلت أول فرصة للكسل الذي لم أتعرف عليه من قبل. أيامي تضاعفت ساعاتها، وكأن زمن تائه في الهواء يهطل عليّ كل يوم من غير حساب. لم تستوعبه الكتب، فأخذت أتردد على الحانة القريبة يومياً.

في القرى سرعان ما يعرفك الناس، وعليك أن تكون شفافا وصريحا في الاجابة على اسئلتهم التي تنطوي على مفاتيح دخول حياتهم وخصوصياتهم العميقة. لم تمض أيامي الأولى حتى تعرفت على حطاب عجوز عاش حياته كلها في الغابة. لم أكن في نظره بشراً، بل ملاكاً حطاباً نزل من رياض الجنة وترك فأسه واجنحته هناك. لسنا بحاجة للتعارف التقليدي، فتاريخنا مشترك: تارخ الغابة، ولنا



أنساب مشتركين: الأشجار والوديان والجداول والغربان والأيائل. كان ينظر إليّ بعينين غارقتين بدمع شفيف. لم أعرف إن كان بفعل الشيخوخة، أم بفعل الشوق، أم بكاء على فقدان أليم.

سألني عن الغدران وكيف أمسى حالها، عن صنف من السنديان العملاق في شرق الجدول قريبا من المغاور، وماذا حل بها؟ والمغارة في سفح الجبل قريبا من النبع، هل مازال الأيل العجوز يقطنها؟ ثم راح أبعد في ذاكرته للجدول، وهل مازال يحتضن الحصى، ومازال جذع الصنوبرة مستلقيا على كاهله، وهل مازالت قادرة على حمل العابرين على ظهرها الأحدب؟

كنت اجيبه وما كدت أصل إلى نهاية إجابتي يكون قد طرح سؤالاً جديداً.

حدثني عن أعشاش كبيرة عمرها عشرات السنين انحنت الاغصان لثقلها، لغربان عملاقة عازفة عن دخول المدينة كالشحاذين. قص لي عن قطيع غزلان الرنة التي كانت تأم لديه ويطعمها ما يفيض من بطاطس يزرعها هناك، وجذور



نباتات طرية. قال لي وكأنه يسمع وقع حوافرها على الأرض:

إنها تعرف الإنسان، وتختبره لمرة واحدة، فاذا وثقت به لا تفارقه. في يوم وصولي للمكان، وكان يوما ممطراً، فرشتُ ما عندي من بطاطا جلبتها معي، خارج البيت لتنشف. سمعت شخيراً وزحاماً عند الباب. وماكدت البس ملابسي وخرجت، وجدت قطيعا من غزلان جاءت على البطاطا واكلتها عن آخرها. رفعت اخطامها وهي تتلمظ تشكرني على نعمتي الفائضة. ما كان لي إلا أن اشكرها على زيارتها. كان قطيع الغزلان شعبي وجندي. معه أصبحت حياتي أكثر ألفة ومرحاً. منذ ذاك اليوم أصبحت ُجليس صغارها، وطبيب مرضاها وراعي شؤون مجتمعها... لكني لم أكن أعمق حكمة منها. كانت هي سيدة الغابة وأنا ضيفها. كنت أستعين بأقواها لجر زلاجتي وقت الشتاء. وكنت أنزل بها للقرية القريبة للتبضع، مرة أو مرتين بالعام. فسموني (رجل الثلج)، ومازلت أحمل هذا اللقلب.

شربنا بلا حساب. لكنه لم يثمل وكان متزن العقل صريح اللسان. علمت منه أنه ترك الكوخ مفتوحا. هكذا هو تقليد



الأوائل ليبقى ملاذاً لمن انقطعت به السبل في الغابة. في نهاية سهرتنا أتفقت معه على شراء الأرض وما عليها: كوخ ومخزن ذو طابقين للاخشاب والعلف والغلال، وعشرين دونما عامرة بالاشجار. طلب مني تحديد السعر. أبلغته بما عندي من مال ولا أملك غيره وأتمنى أن يكون راضيا به. إبتسم وشد على يدي.

في الصباح دفعت له، وقدم لي هدية هي عبارة عن عربة بعجلات دراجة هوائية ذات ذراعين طويلين يربطهما على حزامه ويجرها وراءه كالحصان. أبلغني أنه من الصعب إيصال المؤن إلى أعلى الهضبة بدونها. صدّقته وأخذتها منه. إنها عربة الآلهة. نصحني أن أخذ معي أكبر كمية من درنات البطاطا لزراعتها هناك، فالأرض صالحة لها. وبحبح بصوته:

سيأتيك يوم لن تجد غيرها.

قضيت بضعة أيام لدى أختي واشتريت ما يعوزني. ملأت العربة وحقيبة الظهر، وكانت الكتب أثقل ما حملته، لكني فكرت بحاجتي لها لأشعال الموقد بعد قراءتها.



مبكراً جداً أخذت أول حافلة تقلني إلى أقرب نقطة أصعد منها إلى حلمي. حالما نزلتُ من الحافلة، ربطتُ ذراعيي العربة على وسطي وسحبتها ورائي. ها هي عربة الآلهة مهيئة، وأنا القنطور. توقفت أكثر من مرة في الطريق للراحة وتثبيت الاتجاه. الأشجار لا تخونني ولا الجدول، فكنت على يقين من وصولي المكان قبل المغيب.

هنا وصلت إلى ما أعرفه عن الطريق، وقد اجتزت آخر منعطف مع الجدول الذي تركته يواصل طريقة. اخذت يساراً، صعدت إلى طريق سالكة مفتوحة الفضاء، تؤدي الى هضبة محروثة للتو. ينحني أمامها وادي لا يني ينحدر بلا قرار. الجبل الثابت أمامها بقمته ناصعة البياض تحت أشعة المغيب، ينبأ بقدومي. الطيور عادت الى أعشاشها مبكرة، لا تسأل عن ما تركته وراءها، بل عن رجل/ حصان يتعتع عربته في الأدغال، فضجت الغابة بأصواتها.

في راحة الهضبة المفتوحة مثل كف صغير، هرم فارغ عملاق، يحتضن كوخ بحجم لعبة. الدخان من المدخنة البحرية يصعد ورعاً إلى سماء خفيضة، فيما الغزلان تستلقي على بطونها مترفة.



من باب الكوخ المفتوح على مصراعيه هبت رائحة شواء، في حيزه الضيق، وقف كنوت سولسيدن بطوله الفاره، وقد غدا أطول مما كان، فأحنى رأسه تحت الباب، اتسعت ابتسامته، على وجهه نحتت الأيام رجولة مبكرة. ألقيتُ أعبائي على الأرض واقتربت منه لأسمع صوتاً لم يُجرّبْ منذ أمد بعيد:

- كان يصاحبني أحساس أننا سنلتقي... شكراً أنك جئت.



لا أحد يفكر بي

هذا ما أفعله كلَّ يوم: لساعات طويلة، عبر نافذتي العالية، أراقب الشارع الموازي، والشارع المتصالب معه، وضلع الحديقة الأعوج التي تفصلني عن العالم. حديقة ذات أشجار عتيقة شائخة تشققت سيقانها، لوّنتها أشنات خضراء فسفورية. أغصانها سوداء متقرنة لا تنم عن انتمائها للنبات. يعلوها زنجار حديد ونحاس صدئ.

مرّتْ بالجوار إمرأة قصيرة مربعة، يرافقها كلب غزير الشعر يعضُ كرة وردية براقة. صعدَ التلة والقى الكرة من فمه وتململ. يبدو لي أنه سئم اللعبة. صعدتْ المرأة متثاقلة، التقطتْ الكرة ورمتها بعيداً. هرول الكلب وجاء بها، القاها عند قدمييها، التقطتها ونزلا يتدحرجان معاً والكرة في يدها.

يمر الناس فرادا. لا بد أنهم يفكرون كما أفكر، ولكن



ليس منهم من يفكر بي كما أفكر به. لهذا أكثر من سبب لا يتحمل أحدنا ذنب فيه، هو إني في نافذة بناية فيها العشرات من النوافذ المطلة على المكان، أو إن زجاج نافذتي يعكس الضوء فلا يشف عن ما وراءه، أغلب الظن أنني غير مرئي.

على الرصيف عبر الشارع، أمرأة تسابق ظلها. لابد أنها حريصة على الوصول في وقت محدد، تخبئ عاطفة جياشة تحت معطفها الفضفاض.

أغلبهم يحمل أكياساً عليها أسماء محلات للتسوق بحروف كبيرة وبألوان براقة. بعضهم يحمل أكثر من كيس لأكثر من محل. لا بد أنه لم يعثر على ما يعوزه في مكان واحد.

رجل وامرأة يتجنبان الحديث يخترقان الحديقة صوب الشارع. الرجل يسبقها بنصف خطوة، يشاغل نفسه بالنظر إلى الحديقة. الحديقة لا شيء فيها غير عشب أصفر متجمد. المرأة تراقبه وتكشف استياءه من العالم ومنها، ربما! لكنها تستسلم لوقع الخطوات خلفه. يمكنها أن تكون بعيدة عنه، لكنها تحاول العكس تماما، اللحاق به. قبل أن يعبرا الشارع وقفا جنبا إلى جنب باعتدال مثل حرس شرف وعبرا بهدوء.



أمامهما مرَّ مسرعاً، رجل حليق الرأس ذو كرش كروية نافرة، تشي بتاريخ طويل لتناول الجعة الرخيصة. راح صوب محل التسوق في ركن الشارع.

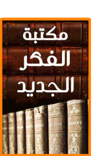
شرطي مرور متخصص بمحطات وقوف السيارات يحمل جهازا اسودا يدقق بالسيارات الواقفة، ولا يسجل شيئاً.

يظهر ذو الكرش الكروية يحمل كيسين شبه فارغين، إنما في قعرهما تستقر أشياء ثقيلة إسطوانية الشكل.

أمام نافذتي في ركن الحديقة يلقي الناس بقايا الخبز للطيور. تحوّل المكان إلى مرتعاً لها: نوارس عملاقة بيضاء وبنيّة مرقّطة ذوات مناقير شرسة، وغربان الزرع سوداء يلمع ريشها في الشمس، وغربان سحماء مغّبرة، وحمامات بدينة في أعناقها أطواق وخطين أبيضين في أطراف أجنحتها.

لا شيء منها اليوم. ربما أكلت مبكراً قبل وصولي، أو تكاسل الناس ونسوا واجباتهم اليومية، ربما لم تعد طيوراً، البته، في الكون؟

لم يكن في نيتي أن أكتب، ولكن ماذا أفعل غير ذلك؟



حطَ غرابٌ على غصنٍ قبالتي، تلفّتَ وطار إلى غصنٍ أعلى، إنحنى يشحذ منقاره بالغصن، طوى جناحيه وهوى إلى وسط الشارع، واخذ يعرج ببطئ شديد، عبرَ باستهتار من دون أن يعير إهتماما لأحد.

شابة تلبس قلنسوة طويلة نزلت إلى عينيها يغطي كفيها قفازان بلا أصابع، تخبط الهواء بذراعين نحيلين، دلفت إلى الشارع الفرعي حتى نهايته، رفعت رأسها إلى يافطة مثبتة أعلى الحائط. لا بد إنها تحمل أسم الشارع ورقم البيت! انعطفتْ يساراً واختفتْ. باب البيت في الجهة الأخرى غير المرئية. هل دخلت إليه؟ ربما على موعد مع شاب مثلها، سيتعانقان بسرعة وتتصاعد أنفاسهما، تنزل سراويلهما بطريقة مضحكة وتعلق بسيقانهما... قبلات متلاحقة وواحدة طويلة تحرك كل شيئ فيهما. الستائر مسدلة والدفء يأتي به الدم المنفعل. عادت وظهرت في منعطف الشارع. ربما لم تعثر عليه، أو إنهما ارتويا بسرعة... كيف أمكنهما إنجاز ذلك الفعل التاريخي بلحظات؟



ماشاف

لا بدّ أنّ ماشاف يدّعي العمى ليعطف عليه الناس ويشترون منه. لا بدّ أنّه يعرفني ويميّز ملامحي، لهذا يبتسم لي كلما صادفني. لابد أنّه يخفي سرّاً، يتجوّل في الطرقات طيلة النهار ويعود على طريقه ورأسه في الأرض. إنّه يعرف بيتنا ويقف ساعات الظهيرة تحت ظلال السدرة التي وهبت أغصانها للشارع، وأمست علامتنا المميزة في المدينة: بيت أبو النبق. تحتها كان يبيع مرطباته وينادي عليها.

قرر أبي اقتلاع السدرة من جذورها ليقضي على ضجيج الناس تحتها، تحت شباك غرفة نومه الفارهة، الباردة، المظلمة والمقفلة دائما. هدّدته أمي أنها تترك البيت يوم يرفع بوجه السدرة فأسه. إنها روح أبيها، زرعها يوم ميلادها قبل وفاته بأشهر قليلة. عمر السدرة هو عمرها. تعتقد أنّ



جذورها تمتد إلى قبره، تخترق المحلة القديمة وطريق السيارات العام، تعبر النهر والبساتين المحيطة به، تقطع الفلاة، وتنفذ عبر سياج المقبرة الحجري، وتصل اليه، لهذا كانت تسلّم عليها كل يوم وتباركها وتتمتم، وهي تسقيها. في وقتها بلع أبي كرامته أمام صوتها الواثق الكليل، وكفّ عن ذكر السدرة بسوء.

كان أبي يغيب عامين ويأتينا في أشهر الصيف، محملاً بالهدايا والمواعظ. يتركنا بعدها وقد تعلمنا أن نطأطئ رؤوسنا طاعة، وفي رحم أمي يترك ما يذكّرها به. خمسة منا ولدوا بتعاقب سنتين في نفس الشهر وبفارق ساعات معدودة. إنها تواريخ مثبّتة في الأرحام.

يوم وصوله، بعد سفر طويل عبر البحار، يكون للبيت رائحة خاصة وترتيب مبالغ به، وأمي لا تشبه أمي قبل هذا اليوم. نتحلّق حوله وهو يُفرغ حقيبته الحديدية المقلّمة بالأحمر، ذات الاضلاع المتينة، وأقفال القلاع الحربية. في ياقة بدلته وتحت حزامه كان يخبّئ ما يأتي به من خواتم ومجوهرات جميلة براقة ذات أحجار زاهية. كانت أمي تُفرغ



جيوبه من النقود المعدنية الأجنبية، وتوزّعها لمن يحبّ معادن بلا فائدة.

كنت أجني منها ما يشبه الريال، بحجمه ونقوشه. أغمضت عينيّ، مرة، وفركت واحدة منها، تحسّست وجهيها، وكذلك فعلت بالريال. لم أتلمّس فرقا بينهما. وزنتهما في الميزان، كلاهما بوزن واحد. قلت أختبر نفسي: أغمضت عينيّ وأخذت واحدة لا على التعيين، تحسّستها وفشلت في معرفتها.

إبتسم قريني وغمز لي. غمزت له وتسللنا كخيط رفيع تسحبنا الغواية خارج البيت وقت القيلولة. قيلولة أبي التي لا يفرط بها، عبرَ من أجل ساعاتها بحاراً وشهد أهوال السفر كي ينعم بها في غرفته الباردة، المظلمة والمقفلة دائما.

ماشاف كان يقرفص في الظل تحت السدرة، تحت شباك غرفة أبي. قرفصتُ إلى جانبه، وتفوّهتُ بكلماتي كلها دفعة واحدة، ولم أكن أسمع غير تساقطها المجلجل في جوفي. قريني كان يعيد ويكرّرها في أذني:

عمي هذا ريال وانطيني واحدة بعشرة فلوس.



قدّمت له يدي،كانت القطعة النقدية تلتصق براحتي، فانتزعها مني بكفّ صلبة يابسة، ونهض وهو يفرك المعدن بين سبابة وابهام، ودسّها في جيبه. في أعماقي سمعت رنينها. قريني توقّف قلبه، وأنا أيقظني ماشاف بصوته الأهوج:

تعال!

اقتربت منه كأني أنوي البكاء في حضنه. خطف فروة رأسي وجرّني إلى أسفل ورماني أرضاً، بيده الأخرى أمسك ياقتي وسحلني إلى مابين رجليه. بكلتا يديّ تشبّثتُ بعجلة العربة وخلّصتُ نفسي. ركضتُ إلى باب البيت ووقفتُ أجرّ أنفاسي وأنفض عني التراب. كانت فتحة ثوبي قد شُقّت إلى خصري، ودمي قد توقف عن الجريان. فركت وجهي مرات عدة لاعيد لونه، ولملمت ثوبي وطويته على بطني كمن يعاني من مغص، ودخلت. كان أبي يقف في وسط الحوش قبالة الباب... كنت واثقاً ممّا سينوبني منه، فهربتُ منه إلى أقرب حضن يأويني، وتركتُ قريني بين يديه يشتمه ويلعن الساعة.



مائدتي

في البيتِ تفوحُ رائحةُ كرفسٍ قُطّعتْ أوراقه للتو، وخبزٍ مشوي إختمر لساعاتٍ طويلة. أتذكّر أني خبأتُ، في المخزنِ خارجَ البيت، قطعةَ جبنٍ أبيض. لا بأس إذا يبُستْ، سيكون للنبيذ اللاذع فعله في تجرع الطعوم العتيقة.

على الثلج أثارُ أقدامٍ غريبة!!

قد يكفي ما عندي للضيوف. عليّ أن أبحثُ عن حباتِ زيتون في قعر الإناء الخزفي، أزيّن بها مائدتي.



مخلوقاتي

قبل بزوغ الفجر ذهبت إلى مشغلي لأرى رسوماتي كيف تصحو مع أول الضوء. لا أسمّيه مرسماً، هذا لأني لا أرسم فحسب، إنما أكتب، وأشتغل، وأصنع أشياءَ - أنا، مثل أبي، حرفي - يداي تعلمانني كلَّ يوم كيف أكون. أنا صنيعها.

دخلت، كانت لوحاتي فارغة: قماشات بيضاء. كلّ ما رسمته عليها وكلّ ما لصقته بأندر الأصماغ لم يعد في مكانه. هجروها بلا كلمة وداع.

جلست أمام النافدة أنتظر ظهور الفجر. مع الشعاع الأول تسلل من النافذة، أولهم. تبعته جحافل منهم وغيمة سوداء من الخطوط والنقاط والخربشات. إزدحموا وسط المكان، بين أقدامي يترادمون: نسوا أن يعودوا الى أماكنهم القديمة، افترشوا الأرض، تربّعوا فوق المناضد، جلسوا في حضني،



وأخذوا يثرثرون عن ليلتهم الفارطة، وعن شبق النساء والخمرة المغشوشة، ويسخرون من شرطة سكارى كانت تطاردهم.



مركبة الآلهة

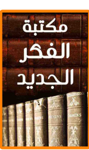
نزل حلزون ليّن من مركبته المطلية بالمينا. إسترخى قليلاً، تثاءب، زحف على مهل تحت الشمس، فتح بدفته الرخوة التراب الناعم، رسم خلفه خطاً زئبقياً، طريقاً لقلب تائه.




مكتبة
الفكر
الجديد

الفهرس




مكتبة
الفكر
الجديد



يواصل يحيى الشيخ، صاحب "سيرة الرماد"، عبر نصوص "ساعة الحائط" رحلةً استثنائيةً مع الكتابة، يقترب النثرُ فيها من تخوم الشعر، وهو يعيد إنتاج عناصر تجربة عاشها الفنان فعلاً حافلاً بالحلم والحياة، مثلما عاشها الكاتبُ من خلال حلم لوحاته، زيتها وخطوطها، ريشها ولبّادها – اللوحة لدى الشيخ متنوعةٌ كالحياة لها ريشٌ، أحياناً، ولبّاد! – ، لتكتمل اللحظةُ الإنسانيةُ لديه ظليلةً وارفة، ويكون بمستطاع نصوصه التعبير عن قدرة صاحبها على النزول بإمانة ويُسر إلى مياه الإنسان العميقة التي تحتفي بالعالم على طريقتها شبه الصامتة، وإن تحدّثت فإنما تتحدّث بمقدار، بما يُجيب عن حضور النصوص القصيرة في كتابه وهي تُفيد من دهشة الفنتازيا مضيفةً لتجربته الكتابية حصيلةً واسعةً من الجمال.

لؤي حمزة عبّاس


9 780994 854377

